المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تَعظِيمُ الله تَعَالى
فِي هِدايَات القرْآن الكَريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

من معاني التعظيم في مباني علوم القرءان العظيم

اسم الباحث

أ.د/ توفيق العبقري

أ. د. توفيق العبقري

من معاني التعظيم في مباني علوم القرآن العظيم

التقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد، وآله وصحبه أجمعين، ،

من معاني التعظيم في مباني علوم القرآن العظيم

إنَّما العلم الخشية[1]، كلمة خرجت من مشكاة النُّبوّة، فأصابت عين اليقين، وامتلكت بجيل الأمر، وأخذت سداد النَّظرة وحكمة الفكرة ورَشَد التَّصوّر، وإنَّما الخشية ثمرة الإجلال، ونقاية التعظيم. ومبلغ الإيقان أنَّ المعارف الشَّرعية برمتها إنَّما نشأت -في بداءة الانبلاج- من القرآن، وترعرعت في خلاله، وتشربت من خلاله؛ فكان فتحها مبينا ورجح ميزانها مبهرا متى فاءت بمتطلبها إلى معرفة الله، وأورثته برد العلم بشرائعه وتعظيم شعائره وحرمات أمره ونهيه، وتلك كانت سنة الرعيل الأول، حين أشربوا في أفئدتهم هذا الكتاب، وكانت عقولهم أوعية لمضامين خطابه، وانطلقت جوارحهم على الترجمة الفورية تصديقًا لما علموه في مواقع السلوك ووقائع العمل.

وقصّ من بعدهم أثر هديهم، واقتضى تطاول العهد أن يمثّل ما كان كنين الصُّدور من العلوم، حظيًا بتذوق القلوب، مجلوة سرائره على خصوص بصائر الأعمال، على مقتضى شعائر التأليف، وأن يتخذ سبيله في مناسك التصنيف، فكانت بواكير الأوضاع التأليفية تضوع نشرًا بزكى الانتساب للقرآن الكريم، وتعالن بخشوع أصواتها للمتكلم به، تشبعا بروحه، واهتداء بقويم نهجه، ورعيا لسبل رضوانه، وأعلام مقاصده ومآلاته.

ثم جاءت الخلوف تلو الخلوف، تخافتت لديهم أسرار هذه السيرة الأولى، حين صارت أعمالهم التأليفية إلى جنف عن هذا السنن العتيق، واستحالت وسائل المعرفة فنونا من التقنين، ذهبوا في تطريزها كل مذهب، إلا أن يكون فلاحا في تمتين روح الاعتلاق بمؤديات الكتاب الكريم، فلاح من ضعف رقابة محتد العلوم تلاشى الشعور بقدسيتها وانبهات قرابتها بأصل وجودها. وإنما كان مأتى الأمر من أن طبيعة الافتنان بأي شيء يورث

---

(١) كلمة مأثورة عن سيدنا عبد الله بن مسعود (حلية الأولياء ١/ ١٣١).

الافتتان به والإعجاب بتوليداته وموروثاته من المسائل، غير أن الداهية العظمى في ذلك هى أن الانشغال ببنيات الموضوعات ومتفرعات الأفكار يورد موارد التهلكة، حين تجعل وسائل المعلوم قصارى المبتغى وقاصية المرتجى، وتُلَقّى المقاصد والغايات خلاق الإهمال، وتحجب بيناتها عن معنيات الأنظار.

وإنما قصد هذا العرض تدوين بعض مكامن التعظيم وأماكن الإجلال لكتاب الباري عز شأنه وكلامه العظيم، **وقد علم عند السلف أن: «من وقر القرآن فقد وقر الله»**(١)، **و«أن تعظيم الكلام الله تعظيم للمتكلم»**(٢)، **وحاول البحث أن يبصر بعض مثاوي هذا التبجيل في** جملة من العلوم هى أقرب ما تكون اعتزاء لعزه الأحمى وقياما بمقامه الأسنى، وهى علوم القرآن، وهى علوم أخذت بهذه الإضافة من الشرف سنام ذروته، فاستحقت أن تكون أوفر من غيرها في استيجاب التعظيم واستدعاء دلالاته؛ إذ هى عن القرآن صدَرها، ومن شرعته وردها، وهى سبيل معرفة الباري سبحانه والدليل عليه، ومع كل ذلك فلم تكن هى الأخرى بنجوة من البلاء الذي أصاب سمياتها من العلوم، غير أنه بقيت أنحاء رسومها، ومرسوم مصنفاتها تجاهر بعنوان الوصل، وتنادي بشعار التعظيم، وتذكر بأن إلى ربها المنتهى، وأنها لن توت حكمة الخطاب ما لم تتحل بحلية التسبيح بحمد الله والتعظيم لمقامه. وحق لقلم انبرى للكتب في هذا الموضوع الحبيب أن يبرى البري الصقيل، وأن يبرأ من كل داء عليل، وأن يقشعر منه -وهو يلج محرابه- سنانه الخاشع قبل أن يلين به مداده، وينطلق بعيونه لسانه؛ لما أنه يخاطب السويداء، ويقع من المعارف في الجوزاء، ويبصر في جوارح صنائع العلوم مآلاتها العملية، ومقاصدها الشرعية، ويلامس شغاف تبتلاتها القلبية ويرتقى بها في مقاماتها الإحسانية، وذلك كله مما يثمر الخشية للباري عز شأنه، والتعظيم لكتابه، وما هذا سبيله فأخلق به أن يكون له من الأمر سره ومرامه، وكنهه وتمامه، وحقيق بما ازاور عن هذا السنن أن يكون غيا وهوى، وتنكبا عن سبيل الرشد والهدى.

وقد آوى نظر البحث إلى قرار يرى أن له من منطق التقسيم ما هو مسلمة -بحول الله- إلى سلامة تقويم؛ ذلك أنه جعل علوم التنزيل تؤوب -على وافر مدلولها وواسع مضمونها- إلى علمين عريضين لهما من هيمنة المشمول ما إن أوزاع المعارف لترتد طوعا

---

(١) أثر عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. كنز المعاني للجعبري (١/ ٥٩).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ١٢١).

إلى رحابهما، وتنقاد في سلاسة في ركابهما، وهما: علم التلاوة وعلم التفسير؛ باعتبار أن الأول يمتلك من الحاكمية في إيالة تدبير شؤون الالتفاظ وسياسة قضايا الأداء في الكتاب الكريم ما إليه ترجع إليه علومه اللفظية توسلا ومقصدا، وأما الآخر فينعت بحق أنه رئيس العلوم الدينية، وملك بيان المعاني القرآنية، فمنازع الدلالة القرآنية إليه راجعة، ومآخذها عنه صادرة.

على أن تقسيم العلوم على هذا الحد ليس مرادا لذاته؛ ذلك أن العلوم من جهة المعاني معنوية باعتبار قصودها الغائية، وإنما يتجه توصيفيها باللفظية باعتبار الوساطة وعدمها في الإفضاء إلى معانيها[١].

على أنّى لم أكُ بدعًا في هذا الذي انتحيت، بل كان لى في ذلك سلف بهم استهديت، من أولى بصائر مؤرخى العلوم، الثاقفين لمساراتها في رحلتها التاريخية المديدة[٢]، معتبرًا في ذلك إجرائية المنهج، وتطلب وجه الانضباط على وجه يمضى فيه التباحث على سبيل قاصدة ورؤية مستبينة، آخذة ما قدر لها من حظها اللاحظ لمثاوي التبجيل والتعظيم في مباني الكتاب ومعانيه وهما مرجع الأمر في نصه الجليل.

ثم إنه غالبه شوب جنوح تعاظم إلى فصاحة عزم أن يقدم الفصلين مبحث تمهيدي يستبد بالحديث عن صور جاهرة، ناطقة بتعظيم الكتاب نطق مباشرة ومعاينة، فأخلق بها إذ كان معلومها معلوم ضرورة لا يحتاج إلى إيجاف أو إيضاع أن تكون منه بمحل التقدمة والاستهلال، وهو حديث عن فضائله وأوضاعه مما هو من بنائه وأبعاض ماهيته، وما ظهرت أياديه من سالف جهود الأمة في الإنباء عن عظم قدره وكبار مكانته.

كما أن الحديث جرى على أن تكون عين البحث عيناء على جانب الجلال دون معجب الجمال، إذ كان ذلك هو متقصد البحث ومتطلبه.

---

(١) ـ ن. الإكسير في علم التفسير: ٢٧

(٢) ـ القصد إلى العلامة ابن خلدون في مقدمته: ٣/ ٩٣٢.

التعظيم في مفهومه اللغوي والاصطلاحي

أ - في اللغة:

ترتد أحرف المادة إلى معنى الكبر والقوة[1]، أعظم الأمر وعظمه: كبره وفخمه، وجُلُّ الشَّيء: معظمُه، وجلال الله: عظمته. والجليل: العظيم[2].

والعظيم: الذي جاوز قدره، وجلَّ عن حدود العقول حتى لا تتصوَّر الإحاطة بكنهه وحقيقته. وربما فرَّق بعضهم بين العظيم والكبير على نحو اعتباري خاصّ[3].

والتعظيم: التبجيل والتوقير والإجلال والتّرزين[4].

ب - في الاصطلاح:

قال صاحب المنازل رَحِمَهُ اللَّهُ[5]: «التعظيم: معرفة العظمة، مع التذلل لها»، وجعله على ثلاث درجات:

أولاها: تعظيم الأمر والنهى بالقبول والعمل، وثانيتها: تعظيم الحكم القدري، وغايتها: تعظيم الحقّ سبحانه، مرجع الخلق والأمر.

وهو في كلّ ذلك حالة للقلب تتولد من معرفتين:

إحداهما معرفة: جلال الله -عزَّ وجلَّ- وعظمته، والثانية: معرفة حقارة النَّفس وخِسَّتها، وكونه عبدًا مسخَّرًا مربوبًا، حتى يتولّد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه، فيعبر عنه **بالتعظيم**، وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع، فإن المستغنى عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة، ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله؛ لأنَّ القرينة الأخرى وهى معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه.

---

(١) مقاييس اللغة (باب العين والظاء وما يثلثهما).

(٢) الصحاح (جلل)

(٣) الفروق للعسكري (٢٠٨).

(٤) اللسان (ع ظ م).

(٥) مدارج السالكين (٢/ ٤٩٦) وبعدها.

أمَّا مقصد التَّعظيم في خصوص هذا المتصرف البحثى فهو: ما أوجزه أبو شامة بقوله: «إجلال القرآن العزيز: تعظيمه، وتبجيله، وتوقيره، وهما متقاربان في المعنى»[1]، وذلك ملحوظ **فيما ينبغي حياله من الشَّرائط المعتبرة والآداب المرعية: تلاوةً وتفهُّمًا وعملًا**.

(١) إبراز المعاني (٢٠).

قبسات مضيئة من تعظيم الأمة للقرآن الكريم

تواترت نصوص الشريعة الغرَّاء في الإخبار عن عظمة القرآن الكريم، والدَّعوة إلى تبجيله، والتَّنويه بأحواز جلالته ومقارّ وقاره، واحتفت بهذا المأثور الأثير أوضاع زاكية لا يخطئ المتتبع أن يثقفها في أسمائه ووسومه، وأزمانه وأماكنه، وأثره في أهله وحملته، وما ينبغي لذلك من مرعى الآداب في حقِّه وجنابه، وخلص للأُمَّة من ذلك مادة غنية وافرة، وإنّما نسوق الحديث ههنا مساق التَّوطئة لما نحن بصدده، وهو ما يطلب أن يتعفَّف عن إطالة منصوصه، والقناعة بالكفاف في إيراد مجملات عناوينه، مصنفات بحسب ما يظن أنها تلم ما انشعب من تفاريقه، وتلقى -وجزا- خبر ما انبث من تفاريعه، وهو ما أمكن عرض مقاصده تحت هذه العناوين:

١- التعظيم في سلك الاسم والوسم ومعلق الاعتبار:

أ- في معرض **التسمى والعناوين: عظَّم الله تعالى مقام كتابه، ورفع شأنه**، فسمَّاه اسمًا مخالفًا لِما سمّى العرب كلامهم على الجملة والتَّفصيل؛ سمَّى جملته قرآنًا كما سمَّوا ديوانا، وبعضه سُورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت، وآخرها فاصلة كقافية[1].

ب- **في ملحظ الوضع والتَّأليف**: جعل الكتاب الكريم على أقسام أربعة: طوال ومئين، ومثاني ومفصل، كما صيَّر في تجزئته إلى ضروب من التَّفصيل. والجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف **كان أحسن وأفخم** من أن يكون ببَّانًا واحدًا[2].

ج- **في مساقات الإخبار والتوصيف**؛ خُصّ الكتاب الكريم بخلال الكمال، وارتقى به روابى الرِّفعة والاشتراف، وحاز من وسوم التَّعظيم ما تواترت الآي في الإخبار عنه والتَّنويه به من مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الشعراء]، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر]، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ

---

(١) ينظر الإتقان: ١ – ١٥٩، وأصل الكلام للجاحظ.

(٢) ـ ينظر فتوح الغيب للطيبي: ٢/ ٣١٧

﴿لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزُّخرُف]، ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١﴾ [البروج]. وقد زخرت أساليب القرآن بإفادة التعظيم له ولمنزله(١).

د- **تظاهر جهات تعظيمه**، ومن ذلك: اختيار **أعظم** ليلة لنزوله، واصطفاء **أكرم** ملائكته مبلغًا لخطابه، وتنزله على **أفضل** خلقه من أنبيائه، في **أطهر** بقعة من أرضه.

هـ - **إجماع كلمة الخلائق على توقيره** من الملائكة والإنس والجنِّ، كما حكى ذلك نصِّ التَّنزيل(٢).

و- تعدُّد مآخذ التَّعظيم له: تلاوة نصِّه، واستماع تلاوته، وتصديق خبره، وامتثال أمره.

٢- الجهود المباركة في خدمة القرآن الكريم المشعة بتعظيمه(٣)

ويأتي في الصَّدارة بعد المقام النَّبوي الشَّريف، ما تعولم من الأخبار عن الصَّحب الكريم والتَّابعين في البدار إلى تحصيل علوم الكتاب وإحراز معارفه على استرخاص النَّفيس، وبذل الغالي العزيز، وتجشُّم كلف المشاق، وتوقل الصِّعاب.

وتاريخ التَّأليف في القرآن الكريم وعلومه حافل بما يشهد بأنَّ هذا الكتاب الكريم لم يزل بعين الله محفوظًا، وأنَّ الأُمَّة قد هُديت إلى تعظيمه وتوقيره من خلال ما ألقى في رُوعها من وجوه خدمته، والتفاني في القيام على شأنه. وقد تعدَّدت التآليف في فنونه وعلومه، وإنّما يتجه ناظر العناية في هذه التوطئة إلى معارف جمعت من آدبه وفضائله ما يستحثُّ به على تعظيمه وتبجيله، وذلك ما حمل عنوان علم كبير أفرد بالتأليف، وهو: **التأليف في فضائله وآدابه ومناقب حملته**؛ فقد أفرد فقهاء القرآن تواليف ماتعة عمروها بما ينبغي أن يلقاه القرآن الكريم من كبير الإعظام وجليل الإكبار، وأشاعوا في الأُمَّة طوائف سَنيَّة من الآداب دأب عليها سلفهم، بعد ما ضمَّنوا تلك المؤلفات فضائلَ الكتاب الكريم، وما يستحبّ لحامل القرآن من إكرام القرآن وتعظيمه وتنزيهه، وليس القصد هو إيقاعها تحت

---

(١) البرهان (٣ / ٢٥٠).

(٢) ينظر مثلا: الآيات (١٢-١٦) من سورة عبس، والآيات (١-٢) من سورة الجنِّ، والآيات (١٦-٢٥) من سورة المدثر.

(٣) من أجمع ما كُتب في هذا الموضوع بحوث مؤتمر جهود الأمّة في خدمة القرآن الكريم وعلومه الذي انعقد في فاس عام ١٤٣٢هـ.

طائلة التتبع والاستقراء، فشهرتُها ترتقى بها من مقام البيان إلى كفاح العيان، وإنما حسبى هنا أن أقبس من صحائفها أمهات فضائل، وجلائل مآخذ، وعيون آداب تصدع بالتعظيم لكتاب الله وتجاهر بلزوم توقيره، واستعظام ما هو منه بسبب أو نسب، وما منها إلَّا دالٌّ بعبارته قبل إشارته، ومستغن بتنزيله عن تأويله.

وهذي طائفة من ذلك:

أ- **إكرام القرآن وتفخيم شأنه**، وهذي بعض الآداب التى أعلنوها تحت هذا العنوان الكبير[١]:

- تنظيف الأفواه لكونها طرقا من طرق الله تعالى.
- الإمساك عن القراءة حال التثاؤب حتى يذهب.
- النهى عن قراءة القرآن منكوسا.
- لا يكتب القرآن إلا في شيء طاهر.
- خلافهم في أنه هل يجوز في التصانيف والرسائل والخطب استعمال بعض آيات القرآن[٢].
- لا يكتب حيث يوطأ.
- إذا ابتدأوا تلاوة القرآن لم يتكلموا حتى يفرغوا منه.
- كراهة أن يمس المصحف وإن كان بعلاقته أو قال في غلافه، أو كان على وسادة إلا وهو طاهر. وليس ذلك إلا إكراما للقرآن.
- كراهة ضرب الأمثال بالقرآن، والمناظرة به، وكانوا يكرهون أن يتلو الآية عند الشيء يعرض من أمر الدنيا
- لا يناظرون بكتاب الله، أي لا يجعلون لهما نظيرا من القول والفعل.
- كراهة أن يقال سورة صغيرة أو خفيفة، ولكن يقال يسيرة.
- من مأثور مقولهم: «من جمع القرآن فظنَّ أنَّ أحدًا أغنى منه فقد حقَّر **عظيمًا** وعظَّم صغيرا»
- نقل عن قتادة أنه قال: ما أكلت الكراث منذ قرأت القرآن، يريد **تعظيما** للقرآن.

---

(١) ينظر في هذا الموضوع بعامة كتب فضائل القرآن وآدابه.

(٢) البرهان (١/ ٤٨١-٤٨٣).

ب- **أحكام تتعلق** باحترام **المصحف وتبجيله**[١]، مثل: اشتراط الطهر لمسه، والنهى عن السفر بالمصحف مخافة أن يناله العدو.

ج- **إكرام حامل القرآن من تعظيم جلال الله:**

روى أبو عبيد: عن رسول الله ﷺ: «فإنَّ من **تعظيم جلال الله تعالى** إكرام ثلاثة: الإمام المقسط، وذي الشَّيبة المسلم، **وحامل القرآن** غير الغالى فيه، ولا الجافي عنه[٢].

د- وقد أجمل أبو الفضل الرَّازيُّ في نصٍّ جميل جليل هذا المعنى؛ إذ قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وأحرى لمن تنبَّه **على تعظيم حرمات الله** في نصِّ التَّنزيل الشَّعائر والمشاعر والمناسك والمسعى والمواقف أن يتنبَّه لحرمة ما **هو أعظم حرمةً عند الله سبحانه** منهن، وهو المؤمن، ثمَّ لحُرمة مَن اتَّخذه الله من بين المؤمنين أهلين من جملتهم، وهم حملة كتابه، ولولا ورُود الشَّرع بها من لفظه لاستعظم إضمارها، فكيف بإظهارها؟»[٣].

---

(١) البرهان (١/ ٤٧٨-٤٨٠). ومن أجمع ما كتب في ذلك: المتحف في أحكام المصحف للدكتور صالح بن محمد الرشيد.

(٢) فضائل القرآن (٨٩)، جمال القراء (١/ ١١٤).

(٣) فضائل القرآن وتلاوته وخصائص تلاته وحملته للحافظ أبي الفضل الرازي (٣٠).

مقامات التلاوة بين إحكام الأداء وتعاقب المقارئ

نزل أول الوحى صدعا بالأمر الإلهى الكبير: ﴿اَقْرَأْ﴾، فكان إيذانًا بدخول الوحى المتلو المقدس عالم القراءة، وهى القراءة الفسيحة العميقة التى تبتدئ مباديها بتهجى حروف الكتاب إفرادًا في القراءة، وانتساقًا في نسق التلاوة، على نمط التّرتيل وفاقًا لمتعاور أحرف التَّنزيل، لتواصل قراءة الألفظ، وتعانق في خشوع اقتراء دلالات المعاني، مبصرة مآلات البصائر القرآنية في مواقع المناشط البشري والسلوك الإنساني، وتلك مراحل متلاحمة رسخ في هدي الرَّعيل الأوَّل أنَّ من **توقير الكتاب وتعظيمه** أن يكون الأخذ بها على جهة الاقتران، وأنَّ إيقاعها على غير ذلك اهتضام لحقِّ التِّلاوة وتبخيس لمقامها، وإزراء بمكانة الكتاب الكريم حين يؤخذ عضين؛ أشلاء موزعة، أو أبعاضًا مشتتة. على أنّى ههنا إنَّما أفرد بالنَّظر **بعض** مفردات التَّلاوة كما هى عند أهلها، مع استنشاء ما يزكو به عناوينها ومباحث درسها من معاني التَّعظيم التى قد لا يتفطن لها بموجب التَّعامل الصناعى المكرور معها.

وذلك ما انتظم هذه العناوين:

أ- التلاوة ومطلب التدبر

التلاوة مطلوبة للحمد والثناء والتضرع والدعاء، وهى مشروعة لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله ورسوخ عقد الإيمان به، فلا بد من حضور القلب مع اللفظ ومعناه وهو الذي ينتج معنى التفهم، ومن ورائه انعقاد القلب على تعظيم المتكلم بهذا القرآن العظيم، فهيبته والخوف منه، والحياء من مقامه، ثم الرجاء فيما عنده والعبادات إذا خلت عن التعظيم لم يلف منها إلا الحركات وظاهر التلفظات. فليس للعبد من تلاوته إلا ما عقل منها. ومطمع التالى أن مجرد إجراء اللسان بحرف الكتاب لا يحرمه من حسنة التلاوة الموعود بها، ولكنه يكون مزورا عن سر التلاوة وروحها، وكفى بإضاعة مقاصد التعبد اِزوِرارًا عن مرام العظيم، واستخفافا بأمره[1].

على أنَّ وراء هذا التَّعظيم القلبى أثرًا بليغًا يتأبى عن التكتم، ويطلب مسارح اقتضاءاته السلوكية ومواقعه العملية.

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٢/ ٩٧).

ولقد أحسن الإمام الفخر الرَّازي ما شاء الله له أن يحسن حين رأى ببصيرته النافذة: أنَّ التَّعظيم لآي الكتاب، والتَّبجيل لمبانيه ومعانيه وكل ما فيه هو النَّاظم البديع الذي تلتئم لديه وسوم التِّلاوة الحقّة، وتنباع من مشهده كلّ الوجوه الوجيهة لما أسماه القرآن الكريم بـ«حق التِّلاوة». قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أما قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[البقرة: ١٢١]، فالتِّلاوة لها معنيان:

أحدهما: القراءة.

الثاني: الاتباع فعلًا؛ لأنَّ من اتَّبع غيره يقال: تلاه فعلًا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾[الشمس] فالظَّاهر أنه يقع عليهما جميعًا، ويصح فيهما جميعا المبالغة، لأنَّ التابع لغيره قد يستوفي حقّ الاتباع، فلا يخلّ بشيء منه، وكذلك التالي يستوفي حقّ قراءته فلا يخل بما يلزم فيه.

والذين تأولوه على القراءة هم الذين اختلفوا على وجوه:

فأوَّلها: أنّهم تدبروه فعملوا بموجبه حتى تمسَّكوا بأحكامه من حلال وحرام وغيرهما.

وثانيها: أنّهم خضعوا عند تلاوته، وخشعوا إذا قرءوا القرآن في صلاتهم وخلواتهم.

وثالثها: أنّهم عملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه، وتوقَّفوا فيما أشكل عليهم منه، وفوَّضُوه إلى الله سبحانه.

ورابعها: يقرءونه كما أنزل الله، ولا يحرِّفون الكلم عن مواضعه، ولا يتأوَّلونه على غير الحقّ.

وخامسها: أن تحمل الآية على كلّ هذه الوجوه؛ لأنها مشتركة في مفهوم واحد، **وهو تعظيمها، والانقياد لها لفظًا ومعنى**، فوجب حمل اللفظ على هذا القدر المشترك تكثيرًا لفوائد كلام الله تعالى، والله أعلم»[1].

ب- من أثارات التَّبجيل في مثارات التَّرتيل:

إنَّ التَّرتيل -بما هو تمكث وتلبث- مدخل عظيم لفقه آي التَّنزيل، فهو سلم الوصول إلى معاني التَّفكُّر، وسبيل الاهتداء إلى معارج التَّدبُّر، وهو وسيلة تعظيم كلام الباري سبحانه وتبجيله، فلا ينثر نثر الدقل، وإنما يبتغى به وعي مضمنه وتقدير مطلوبه، وتبطن فحواه

(١) مفاتيح الغيب (٤/ ٣٠).

ومغزاه، وفقه دلالاته ومعناه وتلك غاية التلاوة ومآل القراءة، التى وقع النهى عن استدبارها، وتجاهل حقيقتها، في حق من يستعجل ختم مباني الكتاب، وقد تفصى من إنعام النظر في فقاهة معانيه؛[١]. وندب لأجلها من قرئ بين يديه أن يلقى إليه جماع إنصاته ويفرغ له حاسة استماعه، ويشهد بكليته حضرته ويستحضر جلال خطابه وعظمة المتكلم به.

ولقد اعتبر أوائل من صنَّف في الدَّرس الأدائى أنَّ وزن حروف الذَّكر من أعظم البرِّ، وكانوا ينظرون إلى تلاوته مجازًا متعيّنًا، ومعبرًا لازمًا للقيام بحقِّه والانضباط بأمره ونهيه، قال الخاقاني رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]:

ومن يقم القرآن كالقدح فليكن مطيعًا لأمر الله في السِّرِّ والجهر

ومن ثمّ دعا أئمة الأداء إلى الاهتبال بالحرف؛ تمكينًا للفظه وتوفيةً لحاقّ منزلته، وعدم بخسه شيئه، فيتحوّل عن صورته، ويزول عن صيغته، وذلك عندهم في الكراهة والقبح كلحن الإعراب الذي تتغير فيه الحركات وتنقلب به المعاني[٣].

إنَّ ترتيل الحرف تعظيمٌ لحقِّه ورعىٌ لمستحقّه، ينأى به عن الاهتضام والبخس، وقد رُوي عن سيدنا عليٍّ أنَّه كان يكره إدغام الحرف في الحرف[٤]، وما أراه إلَّا نظرًا لاستيفاء الحرف، وأنَّ الإدغام مُذهِبٌ لتمامه، ممعِنٌ في نقصان بنائه، وأنَّ كمال الإكمال في الإتيان به وافي الوزان، مكتمل القدّ والقوام. وليس من شكٍّ أنَّ النَّظر في تأويل ذلك إنَّما يستقيم حمله على شاذّ الإدغام ومستبشعه، دونما صين حماه بموصول الأداء ومعتبر من الرِّواية مأثور.

وما يروى عن بعض القَرَأة من كراهة بعض الظَّواهر الصوتية كالإمالة وغيرها[٥] لا أراه إلَّا ناظرًا لهذا المعنى، مستبصرًا بدلالاته في أنّها توقع نظم الكتاب على غير سَمته، وتولجه موالج لا تليق بمثله تعظيمًا وتبجيلًا. والأمر في تأويله جارٍ على ما سبق في صِنوه من استثناء ما جرى على جدد الأخذ وقويم السَّماع.

---

(١) وقع النّهي عن ختمه في أقل من ثلاث بصريح النَّصّ الصحيح، كما عند الترمذي (٢٩٤٩) وأبي داود (١٣٩٠) وغيرهما.

(٢) القصيدة الخاقانية (البيت: ٢٠).

(٣) ينظر التحديد (١١٦).

(٤) نكات القرآن (١/ ١٥٨)، ومنح الفريدة (٢١٢).

(٥) البرهان (١/ ٤٦٧).

وما لنا نذهب في هذا الذي يكنفه دقّ تناول ولطف مأخذ، ووجد لديه فضل فسحة في القراءة به، ونترك الإجماع على عدم التّرخص في الاتخاذ ببعض اللهجات التى يتطاير من مسالك ملتفظاتها مستكره الاسترذال، ومعاب الاستركاك.

هذا، وقد علم لدى أهل التلاوة أنَّ هنالك من الآداب في سياق القراءة القرآنية ما تتصل دواعيه بمطلب التدبر، ورعى مقامات الخطاب القرآني، ولعل من الأمثلة على ذلك:

- التعبير الأدائى برفع وخفض الصَّوت لتوصيل المعاني، والتَّفاعل مع الآي أمرًا ونهيًا وإخبارًا، يقول الإمام الجعبري رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه وتوجيهه على قراءة هشام في كلمة ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ﴾[فُصِّلَت: ٤٤]: **وينبغى رفع الصوت فيه، أى**: أقرآن أعجمى ورسول عربى لا يفهم معجزته؟ أو مرسل إليه عربى لا يفهم خطابه؟[١]

قال القاضى عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد كان بعضهم يلتزم مثل ذلك عند تلاوة آي من القرآن حكى الله تعالى فيها مقال عداه، ومن كفر بآياته، وافترى عليه الكذب، فكان يخفض بها صوته إعظاما لربه، وإجلالا له، وإشفاقا من التشبه بمن كفر به»[٢].

ويقصد عياض بذلك مثلا خفض الصوت عند مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[المائدة: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[طه: ١٢١] تأدبًا مع الرَّبِّ سبحانه وتعالى، ومع أنبيائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ولعلّه يدخل في هذا الباب ما يعقده فقهاء القرآن في مدوناتهم ممّا يستحب لقارئ القرآن من الجواب عند الآية والشَّهادة لها[٣].

ج - رعى مراتب الوقوف:

ومن مقتضيات الترتيل تفصيل الحروف، والوقف على ما تم معناه منها، ومحاذرة ختم ذكر رحمة بعذاب، أو ذكر عذاب برحمة[٤].

وقد مضت كلمة فقهاء الوقوف على توقير الكتاب الكريم من جهة مقاطعه ومباديه، وأنه بقدر ما يتعالى من يرعى منازل الوقف في آيه، تتعالى منزلته في تبجيله، ومتى تضاءلت عنايته في هذا النحو حاق به من المعتبة والملامة بقدر ذلك. قال ابن الطحان رحمة الله عليه:

---

(١) كنز المعاني (٢/ ٣٩٥).
(٢) الشفا (٨١٠).
(٣) مثلًا فضائل القرآن لأبي عبيد (١٤٩).
(٤) ينظر القطع والائتناف (٧٤).

«أليس من الخطإ العظيم أن يقرأ كتاب الله تعالى، فيقطع القطع يفسد به المعنى، فيتولى تغيير الذكر الحكيم وبئس ما تولى؛ فيتعين فرضا على القارئ تحصيل ما يسدده إلى القطع السليم، ويهديه إلى الابتداء القويم، فيستظهره حفظًا وعلمًا، ويستنبطه فطنة وفهمًا»[١].

ولأمر ما -وما أراه إلا استشعارا لمقام التعظيم في مزاولة وقوف التمام- صدر ابن سعدان كتابه في الوقف والابتداء بما ينبئ عن براعة الاستهلال، فقال رحمه الله: «إن الله كرم هذا القرآن وشرفه وعظمه، وبين فيه الفرائض والأحكام، والحلال والحرام، وفضله على كل كلام، ووعد على تلاوته والعمل بما فيه الثواب العظيم»[٢].

وقال السخاوي في بيان أهميته وخطره ومقامه في إجلال الكتاب وتقدير عظمته: «ففي معرفة الوقف والابتداء الذي دونه العلماء تتبين معاني القرآن العظيم، وتعريف مقاصده، وإظهار فوائده، وبه يتهيأ الغوص على درره وفرائده»[٣].

د - الإسناد مجلى من مجليات التعظيم

أعطى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [النمل]، علوم الكتاب الكريم عنوانها العريض وشعارها العتيد وطبعها الأصيل، ورسم لها منهجا الفريد، فكان عنوانها التوقيف، وقوام منهجها القويم هو الإسناد، معصومة من وصمة التقول والتزيد، متعالية عن شائبة الاختراع والابتداع. فكان تلقيا مباشرا، وأخذا أمينا، وتحصيلا معصوما من شوب الخطإ وأثارة الخلل، واعتبرت الأمة الإسناد ثالث ثلاثة مما خصت به في تحمل حقائق دينها، وتركها ابن المبارك كلمة مباركة في عقب أجيال الأمة من بعده؛ «لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»[٤]، وإذا كان الإسناد يبغى توثيق مخرج الخبر وصدق منماه، وقد علم ما لأهل الحديث في هذا الباب من مبتكر الإسهام، وإذا عم أثر التساند الخبري أرجاء علوم الكتاب، بل وغيرها من علوم العربية والأدب والتاريخ. فإن الإسناد القرائى يرتقى في روابى الوجاهة والنباهة، حين تلطف مآخذه وتدق مداخله في أن لا يعبأ بالتلقى والسماع حتى يلابس بالأذن المصغية اللسان المتقن، فيتحصل من ذلك لا مجرد الكلمة فقط، بل هيأة أدائها وكيفية الالتفاظ بها، في اقتصاص

(١) نظام الأداء (٢١-٢٢).
(٢) الوقف والابتداء (٥٩).
(٣) جمال القراء (٢-٥٥٣).
(٤) ينظر في هذه الكلمة توثيقا وفقها الرسالة الماتعة (الإسناد من الدين).

قاصد للقراءة الأولى؛ ألا تتلى أحرف الكتاب إلا غضة طرية كما نودي بها أول مرة. وهو سلوك عملي ينضح بكثير التبجيل لحرف التنزيل، حين يبرأ من أثارات التغيير والتبديل، ويصان مقامه عن الزيف والتزييل. وإلى هذا المعنى نظرت الكلم المأثورة عن الأسلاف الكرام، كقولهم: القراءة سنة متبعة، اقرؤوا كما قرأ أولوكم[١].

وكانوا يربأون أنفسهم -على جلالة قدرهم ووثاقة أمانتهم ووفور أهليتهم- أن يصدر عنهم الاختيار في القراءة يصير للناس إماما، ويفضلون العكوف على قراءة من مضى من الأئمة، وإمداده بنفس التمادي والاستمرار؛ تعظيما لكلام الباري عز شأنه أن يتفاحش تغيره ويتعاظم التصرف فيه.

وإن من أعظم مثالات التعظيم للقرآن الكريم، وتوقيرهم لحماه في جانب الرواية أنهم كانوا يتجافون عن الشذوذ في تلاوته، قال السخاوي في جمال القراء: «والذي لم يزل عليه الأئمة الكبار، القدوة في جميع الأمصار، من الفقهاء والمحدثين وأئمة العربية توقير القرآن، واجتناب الشاذ، واتباع القراءة المشهورة، ولزوم الطرق المعروفة في الصلاة وغيرها»[٢].

وما قومة ابن مجاهد في وجه شنبوذ إلَّا مشهد من مشاهد الإجلال، والذَّاهب إلى غير هذا من الأئمة معذورٌ بتأوّله[٣].

والتلقى عندهم له ضوابط وموازين وقواعد. وإنّما عاقبة كل ذلك أن يستد جانبه على النهج وأن يستوي على ظهر السواء. وعلى هذا الهدي يفهم عدم إسلاس الصحابة الكرام القياد لسيدنا عبد الله بن مسعود -وهو مَن هو إمامة في مقام الإقراء ورئاسة في شأو الأداء- فما كان لهم أن يتركوا جدد التلقى، والأخذ العام المحفوف بتأييد الجماعة، والمستند إلى آخرية الأخذ واستقراره وخاتميته، إلى تلق لم يرتابوا في أنه أخذ يوما ما من في رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه معارض بما هو أوثق منه وأحكم منه، بعد أن علم لديهم أن النسخ سنة الكتاب، وأن المعول على آخر العرض، وكتاب الله أجل وأعظم من أن يحمل على محامل الاحتمال، إنما هو المقطوع على معينه، المستبين ببينته[٤].

---

(١) ينظر معاني الأحرف السبعة (٣١١ – ٣١٣).

(٢) (١/ ٢٣٤).

(٣) الشفا (٨٧٥) وبعدها.

(٤) معلوم ذلك من سيرة الجمع العثماني، ينظر مثلا: الإبانة لمكي.

معارج التعظيم من مدارج مقارئ القرآن العظيم

أ - التعظيم ومأخذ التعدد القارئي

ليس من شك في مشروعية التعدد القرائى، وأن قد رخص لهذه الأمة أن تقرأ كتاب ربها على وجوه متغايرة من التأدية، وأنماط متنوعة من التلاوة، واختلف الناس في محمل هذا الاختلاف ومأخذه.

ولكنهم بقوا على بلج الإصفاق في أنه خلاف محكوم بتعظيم هذا القرآن، مرعى في حدوده ألا يتجاوز به حدود التغاير والتنوع إلى مضايق التدافع ومعيب التناقض؛ إذ هو أمر مدفوع عن الكتاب الكريم، منفى عن طبيعته. ويعجبنى في هذا السياق قول الإمام أبى الفضل الرَّازي الذي آل رأيه بعد أن استعرض طوائف القول وذيول الأنظار في معاني الأحرف السَّبعة إلى أن قال: «فأمَّا ما أعتقده في الخبر من وراء ما ذكرته، وهو أسلم المذاهب؛ وهو التوصل إلى ما كلفنا بهذه الأخبار، والإمساك عما كلفنا منها؛ فأما ما كلفنا منه فهو أن نقرأ ما علمنا من القرآن. وأن لا ننكر ما لم نعرف من القراءة، ولا نتجادل فيها، ولا نماري في القرآن، ولا نجحد منه شيئا.. وألا نفضل حرفا منه على حرف، ولا إعرابا على إعراب، وعلى ذلك كان القوم، وبه وردت الآثار عنهم»[(١)].

وليس يعنى هذا الذي فاء إليه الإمام بعد نضج على نار الروية إلا استحضارا بالغا لمقام التعظيم، وإصابة راشدة لعين التبجيل، في أن يتوقف عند حدود المتلقى من حرف الكتاب الكريم، وأن يتجانف عن أثارة الإنكار لما لم يعلمه التالى من منزَله، تحقيقا لمقصد الائتلاف المطلوب عنده، ودرءا للجدال والتماري المنهى عنه عند الاجتماع على هديه.. وما أعظمه وأروعه من تخريج جامع، مصنوع على عين هذا التعظيم، يتضاءل عند هيمنته وسلطانه مستطيلات الخلاف في تبين محامل الأحرف السبعة، وتأوي إلى ظله الظليل أوزاع الأقاويل وشجون الآراء وأمشاجها.

ب - متقلبات القارئ ومتعلقات التعظيم

وإنَّ للمقارئ في مقامات التعظيم سبحا طويلا في متقلبات أدائها وتعاور مروياتها ومخارج مصطلحاتها، ومذاهب أهلها. حين تلحظ في حوامل اللفظ وأداءاته محامل المعنى

(١) معاني الأحرف السبعة (٣٥٢-٣٥٤).

ومؤدياته. وذلك في مواطن لا تبلغ هذه الكلمات أن توردها موارد الحصر، وإنما حسبها من ذلك ما أحاط بالجيد؛ مثالات في عباراتها عبر، وفي جملها جمال، ليس يخلو من وقار وجلال، من ذلك:

- اعتبار القرأة من مقتضيات زيادة المط ما يقتضيه من اقتضاء معنوي يقصد به المبالغة في النفى في (لا) التى لنفى الجنس، نحو: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾[البقرة: ٧١]، و﴿لَارَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة: ٢]، ومنه: مدّ المبالغة في: ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[الصافات]، لما فيه من المبالغة من نفى الإلهية عمن لا يستحقها.

وهو مقتض يدخل على معنى التعظيم ومخاطبة المعنى دون كثير التفات إلى الاقتضاء اللفظى الذي هو ملاك اعتناء القراء وموضع تحفلهم.

على أن النظر إلى المعاني في غضون المباني أمر غير بدع ولا مستنكر، ولن يعدم النظر لذلك مثالات تفيد في هذا الباب.. فما لم يمت للكل جاء مثقلا، وآتى بمعنى أعطى، وأتى بمعنى جاء، فاتفقوا على إثبات ألف الأولى، وحذفوا من الآخر، واختلفوا بالنظر إلى هذه المعاني في سبعة أحرف..[١]

ولو أردت مضامين المقارئ على هذا الانتحاء لألفيت وفرا كثيرا، ولكان لك منه عود حميد، وحسبنا ههنا أن نقتصر أمثلة تخبر عن سواها، فمن ذلك:

١- قراءة حمزة: ﴿وَأَنَا اِخْتَرْنَاكَ﴾ [طه: ١٣]، وقد خرجت على وجه التعظيم لله والمبالغة في الإجلال له[٢].

٢- ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ﴾ [مريم: ٩]، والله عزَّ وجلَّ يخبر بلفظ الجمع عن نفسه، فالقراءتان بمعنى واحد[٣].

---

(١) ينظر القول المفيد (٢٧- ٣٠).

(٢) شرح الهداية (٢/ ٤١٦)، والكشف (٢/ ٩٧).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٤٠٨).

٣- ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن] قرئ في المعمول به بالرَّفع وبالجرِّ، وهو تراوح فيه إجلال للذات الأقدس الموصل للكرم المنزل الرَّحمات، وفيه إعظامٌ لاسم الرَّبِّ العظيم، وكأنَّما مجرد الاسم مكرم للغير(١).

٤- إثبات البسملة بين خصوص الأربع الزهر، كراهية إيهام ما يخل بالتعظيم، وهو تنافي الخطاب(٢).

٥- إدراجهم سنة التكبير في سنن القراءة قبيل الختم(٣)، والتكبير دليل التعظيم، بل هو هو.

- تفخيم اسم الجلالة إثر فتح أو ضم. قال الحصري(٤):

وإنْ وَقَعْ اسْـــمُ اللهِ وَالفَتْحَ قَبْلَـهُ أَوْ الضَّمّ **فَخَّمْنَاه سبحان** ذِي الغفَر

مع رعى مداخل التعظيم في مخارج الاصطلاح، فآثروا التفخيم على التغليظ في العبارة لما كان موضوعها لام الجلالة، قال أبو شامة: «واسم الله تعالى التزم فيه التغليظ **تفخيمًا له وتعظيمًا، اختصّ بذلك سبحانه من غير وجود حرف استعلاء** فيه، فإذا وقع بعد كسرة رققت اللام تحسينا للفظ به»(٥)

ويتراءى لك أحيانا استصحاب المؤلفين لتعظيم القرآن في مختلف تقلبات أداءاته الحرفية، وأن الله تعالى ما أذن لكلامه أن تتعدد أنماط تأديته، إلا أن ذلك عنده مشمول بعنايته وفضله، وأنه داخل تحت بساط حكمته وفضله، ولعلك تفيد قريبا من هذا المعنى في قول الفاسى في المحاذي وهو يرقب معنى الحرف الذي تترتب عليه الحسنات: «هذا، واعتقادي في **الجليل الجميل** الغنى العلى الكبير البر الرؤوف الرحمن الرحيم المنعم الشكور أن يثيبنى على كل حرف لفظتُ به من كتابه العزيز، خُطّت له صورة في المصحف أو لا، بل يثيبنى على **اللام المغلظة ثوابا أمتع من الثواب عليها مرققةً، وعلى كل حركة أتممت أو اختلست، وعلى كل همزة حققت أو خففت، كانت لها صورة أو لا، إلى غير ذلك**»(٦).

---

(١) ينظر: إبراز المعاني (٦٩٥) وبعدها.

(٢) ينظر فرائد المعاني: شرح باب البسملة من الحرز (البيت: ١٠٣، ١٠٤).

(٣) باب التكبير مثبت في معظم كتب القراءات الجوامع.

(٤) من رائيته (البيت: ١٧٨).

(٥) إبراز المعاني (٢٦٥).

(٦) آخر باب الصفات والمخارج من المحاذي.

هذا ظنى به، أو هو يقينى فيه، اعتمادا على رحمته، واعتقادا لصدق عِدَتِه، إذ قال: «**أنا عند ظن عبدي بى**»، ورجاءً في فضلِه، ألا يقيم علينا ميزان عدلِه. وهو المسؤول أن يثيبنا على الإيمان، وأن يشغلنا بتلاوة القرآن. آمين، والحمد لله رب العالمين.

ج - من تجليات التبجيل في مناهج الأخذ القرائي:

- نبذهم للابتداع وصونهم المنقول عن أثارة التبديل، ومن ثم تبعدهم عما يثير هذه المعاني ويستدعيها كالقياس والاستحسان.. قال الشاطبي رحمه الله:

وما لقياس في القراءات مدخل فدونك ما فيه الرضا متكفلا

- اعتبار أحرفها ألفظا مبجلة، مرفوعة معظمة، وإن مما يحضرني هنا عبارات الشاطبى سيد العلماء وإمام القراء، وهى عبارات عميقة الدلالة، كثيرا ما ذيل بها خلاف المقارئ، في إشارة ذات إمالة إلى استحثاث القارئ على دوام استصحاب عظمة هذه المقارئ وأنها من القرآن العظيم وإليه، ومن ذلك قوله: وفي طه بوجهين بجلا ـ عم وأبجلا ـ وجها ليس إلا مبجلا ـ والخلف في الكسر بجلا ـ سما وتبجلا ـ والهمز زاكيه بجلا ـ به الخلف بجلا [(١)].
- حملت لحون المقارئ فضل خلاف هو من الوحى وإليه، زيادة ونقصا، إتماما واختلاسا، بيانا وادغاما، عبارة وإشارة. فكانت أصالة مرجعيته رائد القائلين بعدم المفاضلة بين حروفه؛ توجسا من الغض بمقام المفضول، وهو كلام الله جل وعز. على أن الذين جنحوا إلى بعض ضروب الموازنة على هذا الحد، رأوا الأمر واسعا تعضده النقول المؤذنة بذلك، مع استصحاب بقاء جميع النازل في كنف التعظيم وكهف التبجيل، وعدم التبخيس والتهوين، إنما هى ملاحظ تبعية تستأثر بها بعض الحروف عن بعض، على سبيل التساند في الوفاء بالعبارة عن أمر الله ونهيه، وخلقه وشرعه.. تماما كما تستأثر دلالات أسماء الله الحسنى ببعض الأوصاف، ثم تتكامل في الدلالة على الذات العلية سبحانه جل شأنه.
- انتضاء عضب النقد القرائى منذ الأزمان الأولى للوحى، درءا للخطإ الواقع أو المتوقع في مسالك القراءة وطرائق تأديتها؛ رعاية لمأخذ النقل فيها، واعتبارا بالوضع العربى في نظمها، ومدى وفاقها للسواد في رسمها، وتأملا في معاني مداليلها[(٢)].

---

(١) الأبيات من الحرز بأرقامها مرتبة: ١٦٣، ٥٠١، ٥١٢، ٥٢٢، ٩٢٩، ٩٦٦، ١٠١٧.

(٢) ينظر في سيرة هذا النقد وتاريخه وقواعده: قواعد نقد القراءات القرآنية للدكتور عبد الباقي سيسي.

وفي قمة عقلنة التحصيل القرائى، رسما لطرائق جمع حرفه، وترسما لسبل اختصار كُثره، لم يفتهم أن يعتبروا مطلب التعظيم شرطا في جمعه، الإخلال به معيب، فقال قائلهم آخذا من معجم التعظيم فسحة مقاله[1]:

فتقديس قدوس وتعظيم مرسل وتوقير أستاذ حُلىً رعيُ ها حَلا

(١) التكملة المفيدة للقيجاطي نسخة خاصة، ويستظهر فيها وشرحها النشر لابن الجزري (٣/ ٢٠٩٧).

من مفردات الدرس القرائي في دلالتها على كليات التعظيم

وتدعوني بعض مفردات عناصر القراءة ومستلزماتها أن أقف عندها، استلهامًا لما توحى به مبانيها من معاني التعظيم، وذلك:

شعار الاستفتاح وأدب التعظيم

أ - الاستعاذة:

شرعت الاستعاذة لتطهير اللسان والقلب من ملابسة الشيطان، حتى يتحقق صلاحهما لمس حروف القرآن ومعانيه ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾[الواقعة]. وقلب المؤمن أشرف البقاع وهى أولى بتطهير ساحتها من مكايد الرجيم[1].

قلتُ: وفي هذا تعظيم لكلام الباري جلَّ شأنه، واعتبار وكيد لمقامه، فلا يدخل عليه إلا باستئذان، مؤيد باستدعاء ما يطهر من الأدران.

ثم هى إعلان بتحقق العبد بمستقر العجز والضعف والفاقة للرَّبِّ سبحانه، قلت: وفي هذا اعتراف لاجئ وجؤار صارخ بجلال عظمة الله ومطلق غناه وتمام حوله وقدرته، فهو وحده القادر على تخليص العبد من وساوس الشيطان، وسلطانه هو الذي يمنع أن يكون للشيطان عليه سلطان، وفي المقابل جعل الشيطان بمقتضى الاستعاذة منديلا تمسح فيه أوزار هذه الدار، أدبا مع الله لئلا يصرح بنسبتها إليه. وقد لحظ القراء في كونها شعارا للقراءة، أن يقع الجهار بها في لاحب الأخذ ومسجل القرآن لدى جميع القراء، وصار إخفاؤها عندهم كالرواية المرفوضة، فكان هذا إعلانا وصدعا بما تنطوي عليه من معاني الافتقار إلى الله عز وجل، والاحتماء بجلاله وعظيم قدرته.

وفي مبحث الصيغ التى يتأدى بها مطلوب التعوذ، كان مطلب التنزيه والتعظيم -مبنى ومعنى- مرتسما لديهم في مستند الرواية وفقه الدراية[2].

وفي مباحث الوقوف لم يخل نظرهم من هذا الشفوف، فكان الاختيار عند أماثلهم ألا يوصل التعوذ بضمير يكون عوده على الله تعالى بالإخلال وعدم الإجلال[3].

---

(١) ينظر: أجوبة بنكيران (٢٣٢-٢٣٧).

(٢) كما قال الشاطبي: وإن تزد لربك تنزيها فلست مجهلا.

(٣) كما لوصل بقوله تعالى: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[فُصِّلَت: ٤٧]، وكان الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ممن يذهب إلى عدم وصل الكلمة التي تحمل ضمير الجلالة لما يوهمه ظاهر الوصل من عوده على الرجيم في التعوذ.

ب - موحيات التعظيم في بسملة الكتاب الكريم

البسملة سنة القراء في الابتداء، وهى صنو التعوذ في الاستفتاح بنص الكتاب الكريم، هذه استعانة وتلك استعاذة، وكلاهما يتحقق به الاستئذان على كلام الله العظيم. وقد احتفى بها الكتاب الكريم من مناح عدة من أظهرها:

أ- جعلها حرفا من متلو تنزيله، فهى لفظ قرآني باتفاق، في سورة النمل.

ب- أثبتت بقلم سواده في أوائل سوره ما عدا سورة براءة.

ج- افتتح بها فاتحة كتابه، وأجمع الرسام على كتبها أول سورة الفاتحة -والخلاف في تكرر قرآنيتها على تكرر الكتب لا يضير فيما نحن فيه، لأنه منحصر في تحقيق رسم المبنى وحدوده- وسنّ بهذا الإجراء أن تفتتح بها مهمات الأمور ذوات البال.

د- تكرر ثبوتها في صدور السور يعطى توكيد ما تحمله من معنى اليمن والبركة، ورعيا لهذا اللحظ كانت براءة على سبيل الثنيا منه؛ باعتبار سياقها التنزيلى ومحمولها الخبري الذي لا ينسجم معه.

- تقدير متعلق مجرور البسملة لمحذوف أسعف بصلوحية البسملة لابتداء كل شارع في فعل. وهى منازع من الاهتمام بها؛ لما تحمله من أوصاف ذي الجلال والجمال، وليس ينحسر النظر من ذلك أن ينتزع منها من معنى التعظيم:
  - أن الألف واللام في اسم الله؛ فهى لإفادة الكمال والتفخيم والتعظيم، وإنما حملت على ذلك لأن باب المدح مبنى على المبالغة والإغراق فيها.
  - أن الوقف على اسم الله تعالى بتمكين الألف التى بعد اللام المشددة كالوصل، ومن حذفها فقد غلط.. وهى لغة ردية لا تدخل في القرآن، [1] وهو تمكين صادر عن تمكن هذا الاسم الجليل من النفوس، وأن بخس حركته أو شيء من بنائه هو اعتداء على ما يحمله من جلال المسمى به عز شأنه.

ولقد ذكر أهل العلم جوابا عن وجه الابتداء باسم الله دون بالله؛ أن ذكر اسم الله هو على وجه الإعظام له، كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، فأمر بتنزيه اسمه، وأريد به تنزيهه عما لا يليق به، لكنه ذكر الاسم تعظيما له[2].

(١) البسملة لأبي شامة (٦٨٨، ٦٩٤).

(٢) عيون المسائل في القرآن العظيم لأبي معشر الطبري (١٢).

في بسملة أبى شامة: «وحذف بعض الكتاب السين لأنها معلومة، وكره ذلك العلماء. قال ابن سيرين لمن فعل ذلك: مه! اكتب سينا، اتقوا أن يأثم أحدكم وهو لا يشعر، وضرب عمر بن عبد العزيز بعض الكتاب على ذلك، وقال: أجد الثلاثة. قلتُ (أبو شامة): إنما كرهوا ذلك **خوفا من الاحتقار والازدراء**، إما من الكاتب، أو ممن يقف عليه، فيكون الكاتب سببا لذلك. ولهذا كرهوا تصغير حجم المصحف. وأما فيما يرجع إلى نفس الدلالة فأي شكل دل على المراد فهو مطلوب، كما أسقطت الصحابة في المصحف ألفات كثيرة من كلمات متعددة عرف مكانها، مثل (بسم الله، الرحمن) حتى صار لو كتب ذلك على خلاف هذه الصورة لاستنكر»[1].

ويأخذهم هذا التعظيم إلى أن يحسنوا الظن بأخبار تجري في هذا السياق، كأن تجد مثلا في تلك الروايات أن رجلا كتب بسم الله الرحمن الرحيم فأحسن تمطيطه فغفر الله له.

جـ - مأثور الرسم ومعاني التعظيم

الرسم أحد اللسانين الذين تأدى بهما التنزيل الكريم، وحملت على متنه أحرفه الشريفة، ظهيرا لأداء التلقى ومشافه السماع. ومعلوم من مضاهاة الأخبار أنهما سارا في صون كلام الجليل صنوين، وتحلى بموجبهما التنزيل بوصفين؛ فكان قرآنا متلوا بألسنة الأعلام، وكتابا مرقوما بأسنة الأقلام، حتى إذا استتم له تمام التدوين في العهد النبوي الشريف، ودعا الداعى إلى تداعى أوزاع صحائفه والتئام عسبه ولخافه، تضامت الصحف الصديقية على قديم أوضاعه، وهيئات رسومه. ثم تطلبته الخلافة العثمانية على رشد تدبير وحسن تقدير، بعد أن توجست الخيفة من مغبة الخلف في لحونه وحروف مقارئه.

لقد بدت أنحاء العمل الصديقي العظيم في مسالك كثيرة منها:

- اختيار الكفاءة العالية والأهلية الراسخة التى تكفل لهذا العمل جديته ودقته ومنتهى وثاقته.
- إحكام التدبير، وتحكيم المنهج العلمى المتين الذي يضمن المعيار الأمثل في تبين معتبر النقل، وميز ما استتب له الإبقاء مما عرض له الإلقاء، إعظاما لقدسية القرآنية، واعتبارا لحرمة التعبد بها. فآوى الحرف القرآني في ظل هذا العمل المبارك إلى

(١) البسملة (٥٦٩).

مأمن أمين وحرز حريز من الانمحاق والضياع. ثم جاء على إثره المشروع العثماني الذي تدارك بوادر الخلاف في تلاوة الكتاب الكريم قبل أن يستفحل في أوساط الداخلين في دين الله في عوالم الفتوحات وأمصارها، وقد أسلمهم مأخذ الترخص في تعدد مقارئ التنزيل إلى غير ما سبيل، ولم يعتبروا في الخلاف ملحظ الوفاق، فكان ضبط الخلف التنزيلى: توثيقا وتحقيقا غاية العمل العثماني، والتمس لذلك من مثيل المرتسم إجراءين اثنين:

- التجريد والتعديد؛ فكان الأول استنفادا لطاقة النسخة الواحدة في استيعاب رسوم الكتب، وكان الثاني استنجادا بنظائر النسخة الأولى حين يضيق رحبها عن حمل قبيل من الخلاف، يحدث مثله في النسخة الواحدة من التخليط والخلل ما به يلابس النص الفساد والخبال. فكان قرارا ذكيا حكيما حمدته الأمة، واستحق به أن يكون للناس إماما. واعتبر به أول مدون قرائى. على أن التجريد للمرسوم يمكن اعتباره على ضربين: التجريد العام، والتجريد الخاص: جلبا ودفعا، درءا وردءا.

أما الثاني فهو ما علم من اجتهاد الصحب في تدبير شؤون الخط لتأوي إليه جميع مفردات المقروء المأثور مادام قد استتب له وجه من وجوه القرآنية؛ فبالغوا وبلغوا بالتجريد المصحفى من النقط والشكل -على القول بأنه متقصد غير جار على معهود الكتب لديهم- غاية الاحتفال في صورة الإهمال بدلالة موافقة الاحتمال.

وأما الأول فغايته صيانة القرآن عن الاختلاط بغيره، وتوقيهم أن يثبتوا في المصحف ما ليس منه؛ تخميسا وتعشيرا، وأسماء سور، وعلامات أعداد آي. حتى إن من تمسك باطراد قرآنية البسملة كان من أمثل مستمسكه أن كتبت بمثل القلم الذي كتب به القرآن، وبمثل ذلك السواد والخط.

على سنة الصحابة فى كتب المصحف، والتحوط البالغ فى رعى مرسومه مضت سيرة الأخلاف من التابعين وتبعهم، فكانوا على الحدب في رسم حرفه، وقوة الاعتناء به، أدبا معه وإجلالا لمقامه، وأثرت عنهم في ذلك أقوال وأعمال هذي بعض مثلها:

فقد اعتبروا من المناهى كتابة القرآن بالخط الدقيق. وأثر عنهم أن: شرّ القراءة الهذرمة، وشر الكتابة المشق.

وقال البيهقى: من آداب القرآن أن يفخم، فيكتب مفرجا بأحسن خط، ولا يصغر، ولا يقرمط حروفه، ولا يخلط به ما ليس منه.

اعتبر علماء الرسوم خط المصحف الإمام معتمدهم في الوقف والتمام، فاستنكفوا – إجلالا – لرسومه أن يتعدوها، ولمرسومه أن يتجاوزوا هيئاتها، وورثوا عن أسلافهم التركة التدوينية للمصحف على استفاضة وانتشار، وتمادوا بها في مد أنفاسها السُنية السَنية: دقة وثاقة، وتسلسل رواية، وتعاظم دراية؛ فحملت الأوضاع الرسمية للكتاب على متون المدونات، موصولة بحبل التحديث، ومعتقبة بأنظار التفحيص، ومتعملات التمحيص، وذلك ما مثل سائرا سافرا في مصادر علم الرسم ومراجعه. ولن يعدم الناظر أن تتراآى له في مفردات المادة الرسمية كثير من معاني التعظيم ومثارات التبجيل، وإنما اقتصاري ههنا على مثال يصدق به الاقتصار على مراد الاختصار على باب من أبواب هذا العلم يتحدث فيه عن عيون من الحروف كتبت فيها ألفاتها واوا على لفظ التعظيم؛ وذلك في أربعة أصول مطردة، وأربعة أحرف متفرعة؛ فأما الأربعة الأصول فهى: الصلوة، والزكوة، والحيوة والربوا. والأربعة الأحرف: بالغدوة، وكمشكوة، والنجوة، ومنوة. قال الزركشى: والقصد بذلك تعظيم شأن هذه الأحرف؛ فإن الصلاة والزكوة عمودا الإسلام، والحياة قاعدة النفس، ومفتاح البقاء، وترك الربا قاعدة الأمان، ومفتاح التقوى[1].

لقد ضرب علماء الرسم أروع مثال وأورع أنموذج، حين وقفوا من نقط المصحف وشكله أول الأمر موقف المتحرج المتأثم، توقيرا للتجريد الأول، وخيفة أن يهاج المصحف، وتتغير صورته الأولى، حتى إذا رأوا ذلك نورا يستنير به حرفه، فضلا عما يسديه من فضيلة التسديد لقارئه، ويحققه من حماية لفظه من تغيير الجاهلين، انبروا إلى إحكامه محترسين، وأمضوا ضبطه متحوطين؛ علما أنهم بنوه على حسن التعليل، خلافا لما جروا عليه من تعبدية مرسوم التنزيل.

(١) البرهان (١/ ٤٠٩).

منتجبات التبجيل من مجتنيات التأويل في آي التنزيل

أنزل الله الكتاب على هذه الأُمّة، «ولم يرض منها بسرد حروفه دون حفظ حدوده، ولا بإقامة كلماته دون العمل بمحكماته، ولا بتلاوته وقراءته دون تدبر آياته والتَّفكُّر في بيِّناته، وتعلُّم حقائقه ومعانيه، وتفهُّم دقائقه ومبانيه»[1]؛ فلبت الأُمَّة نداء ربِّها تعظيمًا وإجلالًا، وانطلق أولوا الألباب منها أن ثوروا فحاوي القرآن، وانصبوا عند نصاب آيه مناصب فهوم التدبر والافتكار، فكانت مسيرة تاريخية مباركة، أسفرت عن تركة تفسيرية عريضة في عرصات البيان القرآني، آوت تصاريفها إلى موئل أصيل راسخ اصطلح عليه بعلم التفسير، وهو العلم الذي تعولم لدى علماء أهل التدوين أنه العلم الذي تداعت لديه علوم الشريعة ومعارف العربية، لتنطلق مبانيه منها ذريعة واصلة لفهم معاني الكتاب، واستخراج أحكامه وحكمه، وشؤون قصصه ومآلات آيه، اعتمادا على مسند الأثر، ودليل النظر، بحسب ما تبلغه المنة والقُدر، وتسعف به مكنات البصر ولطائف القَدر. وإنما مساق الحديث ههنا إلى استبانة بعض مثاوي التعظيم في خلال هذا العلم الفخيم؛ ذلك أنه ينضح في مسلوكه المنهجي ومحتواه الموضوعي بكثير الدلالات على معاني التعظيم.

لقد وقر في الأُمّة أن كتاب الله تعالى هو عمدة الملة وينبوع الحكمة، ونور الأبصار والبصائر، ولم يكن هنالك إلى الله طريق سواه، ولا تتصور نجاة بغيره، وكان التمسك بغيره مصمت ضلالة وصراح غواية.. ولما كان هو كلام الله عز وجل وكفى، فقد أورثوا اليقين أنه قد أودع فيه منزله تبيان كل شيء، وأن فيه خبر الأولين والآخرين، وأنه: «ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها»[2]، وأن «جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن»[3]. وإذ كان مبلغهم منه هذا المبلغ، فقد كان لا بد أن يقع منهم تعاظم القول في معناه، وأن يأخذ التفكير والتدبير عدته قبل التعبير في محامل لفظه ومآلات معناه. وقد ضرب الرعيل في ذلك من الأمثلة ما سنتبين بعض دلالاته في مأتي هذا المكتوب.

وإن قراءة خبيرة في ضوابط التفسير وشروط المفسر التى بثت في دواوين هذا العلم لتعطي في تأويل مستطرها أن ذلك كله إنما يحمل من شعائر التعظيم وحرمات التبجيل ما

---

(١) مقدمة الكشف والبيان (٩).

(٢) رسالة الشافعي (٢٠).

(٣) من مقول الشافعي، ينظر إكليل السيوطي (٢٥).

مثله وأربى منه خليق أن يحف هذا الكتاب من بين يديه ومن خلفه، تعاليا به أن تعبث به الأفئدة العليلة والأقلام الكليلة، وتحاشيا بجنابه الجليل أن تجريه على سخيف التأويل وباطل التعليل ومتهاوي التضليل.

-على أن أبهر ما يلوح في صدارة تعظيم المعاني القرآنية، وتوقير مكنوناتها الحكمية هو ذلكم الموقف التهيبي الذي سجله الأسلاف وتناقله عنهم الأخلاف؛ حيث وقف أولوا النهى من هذه الأمة موقف التحري والتبري من القول في آي الكتاب برجوم الظنون، ووهوم الفهوم، متى لم تأتم بما يضمن استقامتها ويكفل سدادها، ومازالت الكلمة الصديقية ترسم لناهجي هذا السبيل مراشد هدي في المسيرة التدبرية لهذا الكتاب حين قال رضى الله وأرضاه: «أي سماء تظلني، أوأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»[1]، وهو كلام تضوع أنفاسه بمعاني الإعظام لحرمة القرآن أن يناله كل أحد على سبيل التشهي والافتئات، ويمتلئ وطابه من الإكبار لجنابه أن يُقتحم حماه على غير هاديات المعرفة وشرائطها العلمية، اجتراء بظاهر من غير استظهار، وتلقيا للمأثور على جهة التجهم والاستدبار. وعلى السنة الصديقية كان الأسلاف، فعن الشعبي أنه قال: أدركتهم وما شيء أبغض إليهم أن يسئلوا عنه، ولا هم له أهيب من القرآن»[2]. على أن إعظام القول في التفسير، واعتبارهم اقتضاء صحة التفسير «للمأثور» لم يكن يعني عندهم إقصاء القول التفسيري عن دائرة العقل ومجال الفكر. فإنهم كانوا على تمام الإدراك أن للعنصر العقلي المتخصص في تفهم القرآن الكريم مدخلا دلاليا معتبرا شرعا، وأنه متى تأيد الرأي بفقاهة الاستنباط، ورشاد الفهم، ومؤيدات التأويل، فذلك لا شك أنه من عزائم المطلوب القرآني الذي جعلت معانيه على المجال الرحيب والمتسع البالغ، وهو ما يدرأ إلى القول بأن الرأي المسدد الموافق لمقاصد الأثر، والمشبع بثخين النظر لا ينافي تعظيم الكتاب الكريم، والاجتراء عليه، بل هو من مستكمل أسبابه الدالة على حقيقته ولبابه؛ ذلك أنه يحمل من مشروعية الاستئذان عليه، وتطلب قرى ضيافته ما يجعله على جميل التفضل وكريم التقبل، وعظيم الاحتفاء.

لقد بنى علم التفسير على الاستقراء المحيط، والتدقيق البالغ، والتحرز المتحوط، في فهم محامل وجوه المعاني، والمجال فسيح في تأمل مسارح هذه الوسوم، وتدبر مساراتها في معارف هذا العلم ومناهج التصرف فيها، وإنما وقوفنا ههنا عند ما وضعه العلماء من

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (٣٧٥).
(٢) مقدمة المباني (١٨٤).

ضوابط علمية صارمة لمن أراد انتضاء عضب العمل التفسيري، وانتهاج مسيرته، وهى ضوابط تخبر مفرداتها عن وافر الإعظام لحرم الكتاب الكريم، وتنزيه للمادة التفسيرية أن يرتع فيها كل من هب ودب، وأنها محمية بالعين الساهرة، وأن لا يطأ أرضها إلا من حاز الشرائط، وتحقق بالضوابط، ثم هو بعد ذلك صائر إلى وضع مقوله على محك المفاتشة والمساءلة، والمطارحة والمدارسة؛ ذلك أن القول الشرعى لا يخرج عن أن يكون نصا أو استنباطا، وإذا كان الأول محكوما بكمال إلهيته وعصمة نبوته – بالشرائط المؤذنة باعتباره نقلا– فإن الآخر – الاستنباط – سبيله سبيل ما يدخله الوهم والخطأ، فكان حقا أن لا يجري مؤداه على منقاد التسليم والاستسلام. ولعل مما يجمل استحضاره من تلك الضوابط في هذا السياق ما يرجع إلى فلقين كبيرين، هما المأثور الشرعى، والوضع اللغوي، وهو ما توجز القول فيه الكلم الآتية:

١- جعل أعلى مراتب التفسير حجية واستدلالا هو ما نطق به القرآن وشهد به، فهو أحسن التفسير وأصدق البيان، وهو ما عرف عنهم بتفسير القرآن بالقرآن. وهو أصل شهد له القرآن، ورسخت الدعوة إليه نصوص السنة النبوية الشريفة، وتلقفه الصحابة بكبر الاعتناء، واقتفاه التبع على سنن الاهتداء، واستحر التأليف وتتابع في ترسيخ هذا الانتحاء. وهو مسلك أصيل من مسالك التعظيم لهذا الكتاب، يفوض أمر بيانه إليه، ويحتكم عند الاختلاف إلى المتكلم به سبحانه، ويناى بآياته عن أثارة الاختلاف، فيقرأ عمومه في خصوصه، ويلجأ في مجمله إلى مفسره، ويحمل مطلقه على مقيده، تحقيقا لانسجام عبارته، وتناسب نظمه، وصدق كلمته، ودفع معاب التدافع عن ساحته.

٢- اعتبار البيان النبوي النبراس الذي يضيء للأمة سبيل الفهم لكتاب ربها؛ بمقتضى أنه ﷺ هو الذي أسند إليه تبيين مضامين الكتاب سنة وسيرة، مقولا ومسلوكا وهومنهج متكامل في طرائق التدبر وجميل الاستخراج لمفردات القرآن، وفيه بيان المجملات، وتقييد المطلقات، وفسر المشكلات، وتخصيص العمومات، كما رحبت جنباته من صور البيان بالتفسير بالوجوه القرائية، والتفسير بالوقوف، والتفسير بوسائل الإيضاح، وبالاعتبار توسيع محامل الآي، والتفسير الموضوعى. وهذا الذي أجمعت عليه الأمة من لزوم غزر البيان النبوي والوقوف عند توجيهاته وبينات هديه في حقائق الكتاب ومسائل خطاباته، فيه إعظام مقام النبوة الذي يصدر

عن الوحى الكريم، واستيقان أن السنة النبوية على كثرة تفريعاتها إنما هى بيان للكتاب، ومقام رفيع في تدبره وفهم خطابه، ومن ثم كان حريا الوقوف عند المأثور النبوي، واستثمار دلالاته. ثم وقع التعامل من لدن أرباب الصناعة التفسيرية مع المأثور الأثري بعد ذلك بحسب قربه وبعده من مشكاة النبوة على تفصيل يعلم من محله.كما برز عند علماء التفسير تعظيم قدر النبوة في تلك القواعد التى أصلوها، في مثل اعتبارهم أن الأقوال التى تجل مقام النبوة ولا تنسب لها ما لا يليق بها أحق بالأخذ في تفسير الآية[١].

٣- وضع المقتضى اللغوي في الدرس التفسيري على جهة الشرط المتين الذي لا يعذر متعاطى التفسير بالجهالة به، «وذلك أن القرآن الكريم نازل بلغة العرب، ورسول الله ﷺ عربى. فمن أراد معرفة ما في كتاب الله جل وعز، وما في سنة رسول الله ﷺ، من كل كلمة غريبة أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بدا»[٢]. ويلزم منه أنه «ينبغى أن يسلك في الاستنباط من القرآن والاستدلال به مسلك كلام العرب في تقرير معانيها ومنازعها في أنواع مخاطباتها خاصة»[٣]، وفي ترسيخ البيان لهذا المعنى يقول الشاطبى رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشريعة عربية، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم؛ لأنهما سيان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز، فإذا فرضنا مبتدئا في فهم العربية، فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطا فهو متوسط في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة، فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة، فمن لم يبلغ شأوهم فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم، وكل من قصر فهمه لم يعد حجة ولا كان قوله فيها مقبولا»[٤].

من أجل ذلك، جرت كلمات الصحابة ومن بعدهم على مستحث الدعوة الى طلب الشعر. والتماس الاسباب لتحصيله وجمعه. كما أدرك العلماء أهمية اللغة في نفى الشبه والإشكالات في فهم الكتاب فتشددوا في اشتراط العلم بها على كل من قصد فسر الكتاب

(١) ينظر مثلا: قواعد التفسير (٢٠٧، ٣٤٤، ٤٤٢).

(٢) الصاحبي (٥٠).

(٣) الموافقات (١/ ٤٤).

(٤) الموافقات (٥/ ٥٣).

الكريم، ووقفوا من ذلك موقفا ترجم تشدده وصلابته عباراتهم في هذا السياق، كتلك التى وردت عن مجاهد حيث يقول: «لايحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب»(١). وكقولة الامام مالك: «لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله إلَّا جعلته نكالًا(٢).

لا شكَّ أن هذا الاهتبال الذي يصل إلى حد التشدد إنما يقصد من ورائه، صون النص القرآني عن أن يدخل عليه من غير بابه، ويقرأ على خلاف ما أريد به، وفي هذا صون لمعانيه عن الابتذال والتحريف والتزيد والتغيير، وهو ما يحمل في روح عنوانه ورفيع شعاره تعظيما وافرا وتقديرا ضافيا، وتبجيلا كبيرا لهذا الكتاب الكريم في نصاعة بيانه، وإشراقة لغته، وكرامة مفرداته، ومتانة أسلوبه.

وقد أثمر هذا التعظيم مسالك من الاعتناء لدى طوائف من العلماء؛ فقد لقّى علماء القرآن الكريم مفردات الكتاب الكريم نضرة التحقيق وحفاوة التوثيق؛ ضرورة أنها أول ما يلفى في بناء العلوم اللفظية وتحصيل معاني نظوم التأليف، معتبرين أن «المعرفة بالألفاظ المفردة هى الخطوة الأولى في فهم الكلام، وأن بعض الجهل بالجزء يفضى إلى زيادة جهل بالمجموع. وأن من لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أغلق عليه باب التدبر، وأشكل عليه فهم الجملة، وخفى عنه نظم الآيات والسورة(٣).

وذهبوا في ذلك المذهب البعيد، في كتب الغريب والوجوه والنظائر. وليس يخفى ما ينطوي عليه هذا الانتحاء من التعظيم للألفاظ القرآنية وإكرام مثواها باعتبارها: «لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه. وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن يالإضافة إلى لبوب الحنطة»(٤).

وأن عدم الالتفات إليها بقدر الكفاية والغناء ليس بالأمر الهين، بل يحمل من الإساءة في فهم كلام الله تعالى ما يتنافى طولا وعرضا مع إجلاله وتعظيمه.

---

(١) البرهان ١/ ٢٩٢
(٢) البرهان ٢١٦٠
(٣) مفردات القرآن للفراهي: ٩٥
(٤) مفردات الراغب: ٥٥

وقد احتفى مؤلفو علوم القرآن بلغة الكتاب، في فروع كثيرة استقلت لشرفها بالتأليف، وأفردت بالتصنيف، وذلك مثل: علم معاني القرآن، وعلم متشابه القرآن، وعلم إعراب القرآن، وعلم أساليب القرآن، وعلم لغات القرآن.

كما هب الأصوليون ليفردوا هذا المطلب الأثير بمباحث ضافية؛ حيث حكموا المنطق اللغوي في التفسير والاستنباط بما يشمل هذا المنطلق من الدلالات اللغوية والعقلية التي تدخل ضمن احتمالات النص -مادام لم يرد في هذا المجال مأثور - وكان رائدهم في ذلك طبيعة النظم القرآني وتصرفه في وجوه البلاغة والبيان مع مراعاة مقاصد الشريعة وآصولها الكلية.

وليس يخفى ما حفل به ضرع دواوين الدراسات البلاغية والنحوية والاعرابية من تلك المباحث النفيسة التي تعتبر من عيون ما أنتجته قرائح اللغويين، وأنجبته أنظار فكرهم من فنون البلاغة، في مباحث معايير الأفصحية، ومباحث الاقتباس، ومعرفة الأمثال، ومعرفة إعجازه ووجوه مخاطباته، وحقيقته ومجازه..

علم التفسير القرَّائي

علم التفسير القرائي: هو العلم الذي تعورف على تلقيبه بعلم التّوجيه والاحتجاج والتَّخريج. وهو فن جليل، وبه تعرف جلالة المعاني وجزالتها، وهو يحقّق لآي القرآن فضل ثراء في محامل دلالاتها، وقد بذلت جهود مباركة في التأليف النافع في هذا العلم، وهو علم خرج من رحم الرواية النقلية ليأخذ من سمع الدراية، وبصر الفقاهة، وفؤاد الفهم والنظر ما به يتصير السماع القرائي إلى وفر تعقل وعمق تبصر ورشد تأول في معانيه وتقاليب أوضاعه اللغوية: مفردات وأسلوبا ونسقا.

ولقد تداول الدَّارسون والبحثة أن من أعظم مقاصد التأليف في هذا الاتجاه هو: الدفاع عن عربية القرآن ووجوه قراءاته ومحامل ملتفظاته. على أن بعض الدَّارسين[1] ارتاب في هذا المقصد، معتبرا ما تناقلته هذه الكتب في صدورها من استضعاف بعض القراءات التي لم تجر على قياس أهل النحو والعربية، وفي هذا السياق أقول:

تعظيم لغة الكتاب بين القراء والنحاة

إنَّ ما أثر من سجال تاريخي كبير بين القراء والنحاة لا يكاد يصدر عند التأمل إلا من شريعة التعظيم لهذا الكتاب. ذلك أنَّ النَّحاة -وفيهم قُرّاء- استوقفتهم أوضاع لغوية في الدرس للقرائي لم تنقد لقياس، ولم تجر على سماع فيما اجتمع لديهم من محصلتهم الاستقرائية، وربما رأوا في بعض التراكيب وتآليف نظم الكلم ما لو استعمل في مواطن الضرورة لكان سمجا مردودا، فكيف به في كلام العزيز الخبير؟! وهو قيل -بغض النظر عن صواب معين مدلوله أو خطئه- تضوع منه رائحة الغيرة على لغة القرآن، وأنها ينبغي أن تكون في أعلى مقامات الفصاحة والبيان. ومعلوم أنه لابس نزول القرآن رخصة الأحرف السبعة، وظواهرها اللهجية متفاوتة في مراتب الفصاحة وموازين البلاغة، وبعضها وإن تم له الإحكام والإبقاء، فقد عرض لكثير منه النسخ والإلقاء.. والقراء من جهتهم رأوا الأمر موئله السنية والاتباع، وهو مستعظم لديهم في شريعة الأخذ والتلقي، فلم يستطيعوا مع النحاة صبرًا، فيما جعلوه من ذلك خارج القياس، واعتبروا ذلك عكسا للوضع الصحيح. ومخالفًا للمنهج الرشيد[2].

---

(١) ينظر الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات (١٤-١٥).

(٢) وعلى ضوء هذا يمكن فهم ما أثر عن بعض السلف كالإمام أحمد من تجويزه تفسير القرآن بالشعر. فان ذلك محمله إلَّا يتخذ الشعر أصلا للقرآن يحاكم على أساس. ويعتبر بمعياره والله أعلم.

وذلك؛ لأنّ القرآن الكريم -قطعًا- هو الاصل الذي تستمد منه العربية، ومنه تستفاد استعمالاتها، وصيغ تراكيبها. وهو -بعدُ- لا يناكد فصاحة الكلام العربي، فلا تجوز محاكمته الى مدونات النحو الحادث التي تعتبر غير حاصرة الاستعمال العرب. ولا محيطة بمجامعه.

وفي معقد الفصل بين هذين الموقفين، وتبرئة النحاة من وصمة الازدراء للوحي، وأنهم في موقفهم إنما يصدرون عن معاني التعظيم لكتاب الله ولغته يقول الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس كلّ ما تكلّم به العرب يقاس عليه، وربما يظنّ من لم يطلع على مقاصد النحويين أن قولهم: شاذّ، أو: لا يقاس عليه، أو بعيد في النظر القياسي، وما أشبه ذلك ضعيفٌ في نفسه، وغير فصيح، وقد يقع مثل ذلك في القرآن، فيقومون في ذلك بالتشنيع على قائل ذلك، **وهم أولى لعمر الله، أن يشنّع عليهم**، ويمال نحوهم بالتجهيل والتقبيح؛ فإن النحويين إنما قالوا: ذلك، لأنهم لمّا استقروا كلام العرب ليقيموا منه قوانين يحذى حذوها وجدوه على قسمين:

- قسم سهل عليهم فيه وجه القياس، ولم يعارضه معارض، لشياعه في الاستعمال، وكثرة النظائر فيه، فأعملوه بإطلاقٍ علمًا بأنّ العرب كذلك كانت تفعل في قياسه.
- وقسم لم يظهر لهم فيه وجه القياس، أو عارضه معارضٌ لقلّتِه، وكثرة ما خالفه.

فهنا قالوا: إنّه شاذٌّ، أو موقوف على السماع، أو نحو ذلك، بمعنى أنّا نتّبع العرب فيما تكلّموا به من ذلك، ولا نقيس غيره عليه، لا لأنّه غير فصيح، بل لأنّا نعلم أنّها لم تقصد في ذلك القليل أن يقاس عليه، أو يغلب على الظنِّ ذلك، وترى المعارض له أقوى وأشهر، وأكثر في الاستعمال، هذا الذي يعنون، لا أنّهم يرمون الكلام العربى بالتضعيف والتهجين، حاش لله، **وهم الذين قاموا بفرض الذبِّ عن ألفاظ الكتاب، وعبارات الشريعة، وكلام نبيِّنا محمّدٍ ﷺ! فهم أشدُّ توقيرًا لكلام العرب، وأشدّ احتياطًا عليه ممّن يغمز عليهم بما هم منه بُراء**، اللهمّ إلا أن يكون في العرب من بعُد عن جمهرتهم، وباين بحبوحة أوطانهم، وقارب مساكن العجم، أو ما أشبه ذلك ممّن يخالف العرب في بعض كلامها وأنحاء عباراتها، فيقولون: هذه لغة ضعيفة، أو ما أشبه ذلك من العبارات الدالّة على مرتبة تلك اللغة في اللغات»[1].

---

(١) المقاصد الشافية (٣/ ٤٥٦-٤٥٧).

أشذاء من معاني التعظيم في بعض مباني علوم التفسير[1]

لم يزل المأثور المنقول والتلقي الموصول قائما على أصوله ومحققا لمأموله في كثير من فصول الكتاب الكريم وعلومه؛ على حذر أن يغار على حقائقه ويدخل عليه من غير بابته؛ لقد هدي الأوائل من العلماء إلى تأمل سيرة التنزل القرآني، وتحققوا أنه جاء فرقانا على نجوم المناسبات، وأخذ على تبسط التنقط، وتباعض التسقط والتقسط، وأن كرام الصحب درجوا في تحمله على وفق منهج تعشيري يرعى في الآخذين تياسر التحمل، وتدميث التحصيل، مع كونه يأخذ فسحته من الارتواء بري القرآن علما، والتحقق بوحيه عملا؛ فكان تلقف ألفاظه عن حفاظه، وتلقي مَعانيه من مُعانيه على هذا الضرب من الاستدراج منهجا أصيلا قويما لدى الرعيل الأول لا يعدم في غايته من التمثل الكريم لجلال هذا القرآن وعظمته، في أن تؤخذ ألفاظه ومعانيه على التآخي الوثيق، والتضام الحقيق، وأن حقائقه ليس لها من حظ التلو الالتفاظي إلا بقدر ما يحمله من فحوى المعنى الذي ليس تحته إلا المرتسم العملي والسلوك التطبيقي وفق الاقتضاءات القرآنية السامية.

أثمر التأمل في السياقات التنزيلية لهذا الكتاب الكريم طائفة كريمة من المعارف والعلوم تدخل على القرآن الكريم من مدخل صدق هو مدخل الرواية العريض؛ ضرورة أنها حقائق تحمل من مضي التاريخ ما لا يستطاع أن ينال مرجوه إلا من خلاله، ومن ثم فغيابه يعرض آي الكتاب لعوارض من سوء الفهم وضلال التأويل، كما أن لغت القرآن التنزيلية المبهرة تحمل من جلال المنطق، وروعة البيان، ودقة الخطاب، ما مثله حقيق لأن تتوجه الهمة بإلقاء زمام الاعتناء إليه.

فكان المأثور الشرعي، والدرس اللغوي عضادتي الفهم لشؤون التنزيل، وتنشأ من ذلك هذا الذي صار اليوم بناء متطاولا في المدونات والأسفار من علوم الكتاب التي مهما قيل عن فصاحة مقصدها في فهم الكتاب الكريم وحسن القيام عليه، فإنها لا تفتأ تحمل من سيماء التعظيم وخلق التوقير لهذا الكتاب ما يظل به عصيا عن أثارة التبديل، حظيا بالحفظ من الجليل، وإلى محاولة التعرض لأنداء هذا التعظيم، والاستظلال بظلاله يصار في هذا المعاقد التي لا تملك إلا وجز القول ومختصره، مؤملة فيه أدنى الكفاية ومفيد البلاغ:

---

(١) جريت على تسمية علوم القرآن ههنا بعلوم التفسير تغليبا لجانبها الوظيفى الذي تضطلع به في تفهيم مرادات الكتاب وتحقيق مقاصد بيانه

لقد احتفل العلماء بأوضاع النزول ومواضعه، وأحواله ودواعيه، وبدت مرافق ذلك في علوم كثيرة من آثرها **علم المكى والمدني** الذي ينضوي تحته خمسة وعشرون نوعا قال عنها أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابوري تحقيقا لقيمتها: «من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى»[١]. فانظر رعاك الله إلى هذا التعظيم لكتاب الله في أن لا تمد إليه الأيادي إلا على ظهر العلم بأحوال نزوله ومعرفة جهاته تعيين زمان، وطبيعة خطاب، وترتيب مكان: ابتداء ووسطا وانتهاء، حقيقة وحكما، وشبها، وحملا، وتبعيضا وتمحيضا، وهيئة تنزل: تشييعا وتفريدا، إجمالا وتفسيراوترميزا، وفاقا وخلافا. في توثيق متناه بالغ لمخارج الرواية الشفهية ومراسمها الإسنادية، وتفريعاتها التاريخية.

وحتى لا تزور معاني الكتاب عن سواء التأويل، وتزيغ مراداته عن قصد السبيل كان **علم أسباب النزول** قيما على هذا المقصد الجليل وساهرا عليه؛ اعتبارا بتوقف كثير من الآي في فهم حقيق محاملها وظواهر نصوصها على قصتها وسياقات نزولها. ناهيك عن هذا الأسلوب الاستدراجي في تنزلات الوحى يحمل من حقائق الإيمان وبصائر اليقين ما تشهد به مواقع الوجود ومساقطه التنزلية، وتنذرب مصاديقه العملية ومقتضياته السلوكية وفق محمولات الآي الشريفة الآمرة الناهية..فيتحقق من ذلك صورة وضاءة تمثل فيها حروف الكتاب وحدوده ملتئمة ملتحمة، محققة من هذا النسق القرآني أدبا عاليا من الوقار العظام لهذا الكتاب الكريم في رعاية كليته، واعتبار نسقيته، وتحقيق موجب كماله.

- لقد اعتبر فقهاء القرآن أن التمرس **بمعرفة وجوه أعاريب الآي**، واشتقاق مقاصده من أنحاء خطابه «أقوم طريق يسلك في الوقوف على معناه، ويتوصل به إلى تبين أغراضه ومغزاه»[٢].
- امتلأت عيون مدونات علماء الكتاب جمالا وإجلالا مما يحمله القرآن العظيم من وجوه معجزه، ومبهر بينات آيه، «في مجاري ألفاظه ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه، وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان»[٣]، فما هو إلا نهاية النظام والالتئام، وغاية

(١) التنزيل وترتيبه (٢٣-٢٥).
(٢) تبيان العكبري (٣).
(٣) دلائل الإعجاز (٣٩).

الإتقان والإحكام، فانطلقت أقلامهم تقفو خلال سوره وأوضاع آيه ونظوم تأليفه، كل يدلى بدلائه لامتياح جواهره ودرره، فكان هذا الذي تفشى خبره وذاع أثره في الخالفين من مؤلفات تنمى بصريح العنوان إلى علم الإعجاز، وهى المؤلفات التى نظرت في القرآن إلى مستحسن عبارته، ومستجاد كلمه؛ أن تقع من درسها على سبيل الاستبانة والابتحاث، فإذا هى رجعت من ذلك بإدلال دون استدلال، وإذا هى تعلن - بعد التقصى والتحري- تقاصر ذرعها عن كامل التمثل لمناطات إبهار الكتاب، وتخبر عن تقاعد نظرها عن استيفاء بينات نظمه الذي تجاوز به وسع الخلق وطاقة البشر، ولك أن تقول: إن الذي بقى مرسوما في أعقاب تلك المدونات هى الكلمة الممتلئة بقاصية الإعظام ونهاية الإجلال لبيان بينات هذا الكتاب الكريم، الذي خذيت القروم دون بيانه فلم تملك أن تصول، وارتدت شبا أسنة الكلام فلم تسطع أن تقول. وإن من تمام الاعتراف بإحسانهم أن تقترأ هذه التركة الغنية الاقتراء الحفى الذكى، على وفق الدرس العلمى الموضوعى النقدي، وهى في كل ذلك ينبغى أن لا تكون في غطاء عن هذا المجعول غاية المطلوب، وقاصية المرغوب من استحضار عظمة الكتاب الكريم والتدليل به على ربانيته وجلال منزله سبحانه.

- أفرد فقهاء الكتاب الكريم -قدمًا- قسمًا وافرًا من وكدهم في الانتصار لهذا الكتاب، والدفاع عنه في وجه ما ادعى عليه من أباطيل القول وأكاذيب المنتحل، حمل بعضها عنوان «جوابات القرآن»، وجاء بعضها في صيغة «الرد على الملحدين في متشابه القرآن»، واختارت طائفة منهم أن يسمى سعيه في هذا السبيل «تأويل مشكل القرآن»، وصرح بعضهم بهذا القصد المنيف فكان: «الانتصار لنقل القرآن» أو: «الانتصارات الإسلامية»[1]. وهى كلها تأوي إلى ركن شديد من هذا الذي ابتغى من الذب عن القرآن الكريم واستعظام شأنه وإجلال مقامه، والتعالى به عن أن يمسه رذاذ من شبهة، أو أثارة من ريبة، أو شغب بئيس من ظنة زائفة، ذهابا بذلك كله إلى ما هو معلوم من دين الأمة من ضرورة دفع النكر عن حمى القرآن الكريم، وإزهاق الباطل من حوله.

(١) ينظر للفائدة: علم الانتصار للقرآن الكريم وموقعه بين مباحث علوم القرآن.

- لقد انبعث علماء القرآن لعلم المتشابه اللفظى، وما درأهم إلى ذلك إلا صادق الإرادة في رفع لبس الإشكال عن الكلم، وميزها عن ذوات الأشكال، في سياق التكرر الذي يبغى فرقان الإبانة، وبينة الإيضاح.. ولا شك أن وراء ذلك الرغبة الوكيدة في الدفاع عن القرآن، ورد مدعى المغالطين ومتبعى متشابهه قال الخطيب الإسكافي في هذا السياق: «ففتقت من أكمام المعاني ما أوقع فرقانا، وصار لمبهم المتشابه وتكرار المتكرر تبيانا، ولطعن الجاحدين ردا، ولمسلك الملحدين سدا»(١). وربما كانت عناوين الكتب الموضوعة لهذا الغرض تفى بما ضمنته من المحبة الدفينة لهذا الكتاب، وعظيم التوقير له، والوقوف في وجه كل من يحاول التشكيك فيه وبث الريبة في أثنائه؛ وقد سمى الحافظ أبو جعفر بن الزبير كتابه: «ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل»، فكان عنوانه مدلا بعظيم موقع موضوعه، وجليل منزعه، ومكانته في الدين، وفته أعضاد ذوي الشك والارتياب من الطاعنين والملحدين(٢).
- حتى المبهمات التى قد لا يرى فيها الكثيرون كبير فائدة، ربما اشتم فيها لهم من رائحة التعظيم ما يوحى به مثل كلام أحد أئمتهم حين قال: » وإذا كانت الأدباء تتدارس علم ما أبهم من أسماء الشعراء، وتتنافس في ذكر طبقاتهم وأخبارهم للأمراء، **فالقارئون لكتاب الله بذلك أحرى، وعلى سنن الصالحين أجرى، فبركة القرآن تزيد الريان وتروي الظمآن**»(٣).

وتمضى أنظار علمائنا الأجلاء في خشوع وإجلال لعظمة هذا الكتاب الكريم، قد أرست من أمامه وورائه رواسى من المباني المتينة التى أعلت أعلامه، ورفعت ألويته، وكانت منه على وقار عظيم وإجلال كبير، وحسبك من ذلك أن تقرأ لهم في مستهلات مفتتحاتهم عبارات تؤتيك من ذلك خبر اليقين، من مثل: «أن أحق ما صرفت إلى علمه العناية، وبلغت في معرفته الغاية، ما كان لله في العلم به رضا، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى، وأن أجمع ذلك لباغيه كتاب الله الذي لا ريب فيه، وتنزيله الذي لا مرية فيه، الفائز

---

(١) درة التنزيل (١/ ٢١٨ – ٢١٩).

(٢) من عبارة المؤلف في تقدمته (١٤٦).

(٣) مبهمات القرآن (٢٨).

بجزيل الذخر وسنى الأجر تاليه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد»[١]

أو أن تجد في خواتيم تفاسيرهم لكتاب الله العظيم من تبتلات المناجاة، وعظيم التوسلات ما يضوع نشرا بمثاقيل الاستعظام لمقام الباري عز شأنه، كمثل تلك الأنفاس الخاشعة التي ختم بها الزمخشري رخمه الله كشافه؛ إذ يقول:

قال عبد الله الفقير إليه: وأنا أعوذ بهما (يقصد المعوذتان) وبجميع كلمات الله الكاملة التامّة، وألوذ بكنف رحمته الشاملة العامّة، من كل ما يكلم الدين، ويثلم اليقين، أو يعود في العاقبة بالندم، أو يقدح في الإيمان المسوط باللحم والدم، وأسأله بخضوع العنق وخشوع البصر، ووضع الخدّ لجلاله الأعظم الأكبر، مستشفعا إليه بنوره الذي هو الشيبة في الإسلام، متوسلا بالتوبة الممحصة للآثام، وبما عنيت به من مهاجرتى إليه ومجاورتي، ومرابطتى بمكة ومصابرتى، على تواكل من القوى، وتخاذل من الخطا، ثم **أسأله بحق صراطه المستقيم، وقرآنه المجيد الكريم**، وبما لقيت من كدح اليمين وعرق الجبين، في عمل الكشاف عن حقائقه، المخلص عن مضايقه، المطلع على غوامضه، المثبت في مداحضه. الملخص لنكته ولطائف نظمه، المنقر عن فقره وجواهر علمه، المكتنز بالفوائد المفتنة التي لا توجد إلا فيه، المحيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه ومعانيه، مع الإيجاز الحاذف للفضول، وتجنب المستكره المملول، ولو لم يكن في مضمونه إلا إيراد كل شيء على قانونه، لكفى به ضالة ينشدها محققة الأحبار، وجوهرة يتمنى العثور عليها غاصة البحار، وبما شرفني به ومجدنى، واختصني بكرامته وتوحدني: من ارتفاعه على يدي في مهبط بشاراته ونذره، ومتنزل آياته وسوره، من البلد الأمين بين ظهراني الحرم، وبين يدي البيت المحرم، حتى وقع التأويل، حيث وجد التنزيل: أن يهب لي خاتمة الخير، ويقينى مصارع السوء، ويتجاوز عن فرطاتى يوم التناد، ولا يفضحني بها على رؤس الأشهاد، ويحلني دار المقامة من فضله، بواسع طوله وسابغ نوله، إنه الجواد الكريم، الرؤوف الرحيم[٢].

---

(١) جامع الطبري (١/ ٤٨).

(٢) الكشاف (٦/ ٤٦٩-٤٧٠).

خاتمة

كانت هذه الكلمات قراءة مكيثة رسيلة في موضوع مهيب حبيب، مهيب لأنه مغشي بجلال القرآن محفوف بعظمة المتكلم به سبحانه، حبيب لأنه واقع في دمثات روضات الكتاب الكريم، وهو الكتاب الذي من علينا سبحانه بتيسيره وتسهيل تلاوته، وجعله وسيلتنا في مخاطبته ومناجاته، والقرب منه والتزلف إليه..

إن استجلاء بعض إشراقات التعظيم في مزاولة علوم التنزيل، واستشعار وقار ما تحمله من بصائر الوحي الكريم، وما يفضي إليه ذلك من جميل الامتثال لجناب الكبير المتعال.. لهو من أشرف مقاصد المدارسة؛ إذ يحيي في العلوم مقاصدها ويذكي فيها أرواحها التي قد يتشاغل عنها بوسائلها اشتغال فضول استكثاري يذهل عنها، وإنما حمدت الوسائل أن كانت تسعف بالوصول إلى مقاصدها، ذاك سرها وغاية رغبتها، وتعظم المسألة حين يكون موضوعها هو القرآن الكريم، ذلكم ما حاولت هذه المحاولة الوقوف عند بعض صوره ومكامنه، وهي موقنة أن قد تقاصر ذرعها عن كثير، كيف لا ومسرح بحثها أحوال لا أقوال، ومآلات التزام ومتغيات اقتضاء تتجاوز حدود المعرفة النظرية إلى آفاق التحقق بها والاشتمال عليها. فما بلغ فيه من التوفيق فبتأييد الله وحسن إعانته، وإلا فالله تعالى المسؤول أن يعلمنا وبنعم علينا بالتوفيق والتسديد، بمنه وفضله المديد.

مباني البحث

- إبراز المعاني من حرز الأماني لأبي شامة المقدسي، تحقيق وتقديم وضبط إبراهيم عطوة عوض، ط. مصطفى البابى، مصر د،ت.
- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطى، تقديم وتعليق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، ط٣، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
- أجوبة وتقاييد في تفسير الكتاب العزيز للعلامة أبى عب الله محمد الطيب ابن عبد المجيد بن كيران الفاسى(١٢٢٧-١١٧٢هـ)، دراسة وتحقيق الحسن الوزاني، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، الطبعة الاولى: ١٤٣٨هـ/ ٢٠١١م.
- إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى، دار الفكر ط٢، ١٤٠٠هـ.
- الإقناع في القراءات، لأبى جعفر أحمد بن على ابن الباذش، تحقيق: د.عبد المجيد قطامش، مطبوعات جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٣هـ.
- الإكسير في علم التفسير، للطوفي سليمان بن عبد القوي، حققه د. عبد القادر حسين، المطبعة النموذجية، مصر، د.ط.
- الإكليل في استنباط التنزيل، للجلال السيوطى، راجعه تح. عادل شوشة، مكتبة فياض، مصر ط (١٤٣١ – ٢٠١٠).
- البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين الزركشى، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، د، ت.
- البسملة، لأبى شامة المقدسى، دراسة وتحقيق عدنان بن عبد الرزاق الحموي، ط المجمع الثقافي الإمارات (١٤٢٥ – ٢٠٠).
- التبيان عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين، لأبى البقاء العكبري، تح، على البجاوي، ط. عيسى البابي القاهرة، (١٣٩٦ – ١٩٧٦).
- التحديد في الإتقان والتجويد لأبي عمرو الداني، دراسة وتحقيق د. غانم قدوري الحمد، دار عمار، ط١، ١٤٢١هـ.
- التنزيل وترتيبه، لأبى القاسم الحسن النيسابوري، دراسة وتحقيق د. نورة بنت عبد الله الورثان، دار كنوز إشبيليا، ط٢ – ١٤٣٠هـ.

- جامع البيان في تأويل القرآن، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: هاني الحاج، عماد زكى البارودي، خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، مصر، د.ت.
- جمال القراء وكمال الإقراء لعلم الدين السخاوي، تحقيق د. على حسين البواب، ط. المدني، ط ١ – ١٤٠٨ هـ – ١٩٧٨م.
- الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات: د. عبد البديع النيرباني، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، ط١، ١٤٢٧ – ٢٠٠٦م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم الأصبهاني، دار السعادة، مصر (١٣٩٤ – ١٩٧٤).
- دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجى، مصر، ط٢ (١٤١٠ ـ١٩٨٩).
- الرسالة للإمام محمد بن إدريس الشافعى، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار الفكر، ١٣٠٩هـ.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه عبه على كوشك ط ١، جائزة دبى الدولية للقرآن الكريم. (١٤٣٤ – ٢٠١٣).
- شرح الهداية، لأبى العباس أحمد بن عمار المهدوي، تحقيق: د.حازم سعيد حيدر، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٥هـ.
- الصاحبى، لأبى الحسين أحمد بن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ت.
- الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل الجوهري، تح، أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربى، مضر، (١٣٩٧ – ١٩٧٧).
- عيون المسائل في القرآن العظيم لأبى معشر الطبري، تح. محمد عثمان، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٩ – ٢٠٠٨م.
- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، لشرف الدين الطيبى، تح. مجموعة من الأساتذة، ط ١، جائزة دبى الولية للقرآن الكريم (١٤٣٤ – ٢٠١٣).
- فرائد المعاني في شرح حرز الأماني ووجه التهاني، لمحمد بن محمد ابن آجروم الصنهاجى، تحقيق: د.عبد الرحيم نبولسى، طبعة تجريبية مركز أبى عمرو الداني للدراسات والبحوث القرائية المتخصصة.

- فضائل القرآن، لأبى عبيد القاسم بن سلام، حققه وشرحه وعلق عليه مروان العطية ومحسن خرابة ووفاء تقى الدين، دار ابن كثير، دمشق، ط٢ (١٤٢٠ - ١٩٩٩).
- فضائل القرآن وتلاوته وخصائص تلاته وحملته للحافظ أبى الفضل الرازي تح. د. عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٩٩٤م.
- القصيدة الخاقانية، لأبي مزاحم الخاقاني، تح. د. حازم بن سعيد حيدر، دار عمار، ط١ ١٤٣٦هـ.
- القطع والائتناف، تصنيف أبي جعفر النحاس، تح. د. أحمد خطاب العمر، مطبعة العاني، بغداد ط١ (١٣٩٨ – ١٩٧٨).
- قواعد التفسير عند مفسري الغرب الإسلامى خلال القرن السادس الهجري: ذ. مسعود الركيتى، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية (١٤٣٣ - ٢٠١٢).
- قواعد نقد القراءات القرآنية دراسة نظرية تطبيقى، تأليف د.عبد الباقى بن عبد الرحمان بن سراقق سيسى، تقديم أ.د.إبراهيم بن سعيد الدوسري أستاذ الدراسات العلبا جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ، الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، على محمد عوض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.
- كنز المعاني في شرح حرز الأماني لإبراهيم بن عمر الجعبري، تحقيق ذ. أحمد اليزيدي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب ط (١٤١٩ – ١٩٩٨).
- القول المفيد في أصول التجويد لكتاب ربنا المجيد، لبرهان الدين البقاعى، تح. خير الله الشريف، دار البشائر الإسلامية، بيروت ط١ (١٤١٦ – ١٩٩٥).
- لسان العرب لابن منظور الإفريقى، دار صادر، بيروت.
- مبهمات القرآن، لأبى عبد الله محمد البلنسى، تحقيق محمد السيد عثمان، دار الكتب العلمية، لبنان ط١.
- المحاذي في شرح حرز الأماني: دراسة وتحقيق د. يوسف الشهب ضمن أطروحة دكتوراه بعنوان الآراء الكلامية لمحمد بن عبد السلام الفاسى نوقشت بكلية الآداب، جامعة القاضي عياض بمراكش عام ٢٠١٨م.

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية، تح. محمد حامد الفقى، دار الفكر، د.ت.
- معاني الأحرف السبعة، لأبى الفضل عبد الرحمن الرازي، حققه وخرج أحاديثه وأكمل فوائده د. حسن ضياء الدين عتر، دار النوادر، سوريا، ط١ (١٤٣٣ ـ ٢٠١٢).
- معجم مقاييس اللغة لأبى الحسين أحمد بن فارس، تح، وضبط عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، مصر.
- مفاتيح الغيب، لأبى عبد الله محمد الرازي، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، لأبى إسحاق الشاطبى، تحقيق أ.د عياد بن عيد الثبيتى، ط. معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى – مكة المكرمة. ط١ (١٤٢٨ – ٢٠٠٧).
- مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: د.عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، ط٧-٢٠١٤.
- مقدمة الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأبى إسحاق الثعلبى، دراسة وتحقيق د، خالد بن عون العنزي، كنوز إشبيليا ـ الرياض، ط١ (١٤٢٩ – ٢٠٠٨).
- مقدمتان في علوم القرآن، مقدمة المباني لمجهول، نشر: آرثر جفري، تصحيح عبد الله إسماعيل الصاوي، مكتبة الخانجى، مصر، ط ١ د. ت.
- منح الفريدة الحمصية في شرح القصيدة الحصرية، لابن عظيمة الإشبيلى، تح. توفيق العبقري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط. النجاح ط١ (١٤٢٩-٢٠٠٨).
- نشر القراءات العشر لأبى الخير ابن الجزري، تح د. أيمن رشدي سويد، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، ط١ (١٤٣٩ – ٢٠١٨).
- نظام الأداء في الوقف والابتداء لأبى الأصبغ ابن الطحان، تح. د، على حسين البواب، مكتبة المعارف، الرياض ١٤٠٦ – ١٩٨٥م.
- نكات القرآن لأبى محمد عبد الله المقري، دراسة وتحقيق د. نمشة بنت عبد الله الطوالة وأخريات، دار كنوز إشبيليا، ط١ ١٤٤٠ ـ ٢٠١٩م.
- الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل لأبى جعفر محمد بن سعدان، قرأه وشرحه محمد خليل الزروق، مكتبة الخانجي، مصر، ط٢ (١٤٣٠ – ٢٠٠٩)